

www.hiramagazine.com

العدد الثاني/السنة الأولى/يناير-سارس 2006

# حرام

مجلة عالمية ثقافية فصلية



✓ الحج... م. فتح الله كولن

✓ شبابه القرآن - أ.د. م. سعيد رمضان البوطي

✓ وسطية الأمة الإسلامية - د. محمد عمارة

✓ فلسفة الموت عند بديع الزمان - أ.د. مصطفى بنحمة

✓ قوافل الحج في العصر العثماني - أ.د. الصفصافي أحمد القطوري

✓ دور الشجر الأخضر في خزن طاقة الشمس - أ.د. زغلول النجار



# المحتويات



المقال الرئيس

٤

- الخج... م. فتح الله كولن..... ٤
- شبابية القرآن أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي..... ١٠
- وسطية الأمة الإسلامية د. محمد عمارة..... ١٤
- فلسفة الموت عند بدیع الزمان سعيد النورسي أ.د. مصطفى بنحمزة..... ١٨
- توقف هنية... د. مجدي سعيد..... ٢١

هتاف الأرواح

- أديب إبراهيم الدباغ..... ٢٢
- مفهوم الجمالية في الإسلام من الترتيل إلى التشكيل أ.د. فريد الأنصاري..... ٢٤
- الألوان والإنسان مليح مرد..... ٢٨
- حراء (٢) «شعر» أ.د. حسن الأمrani..... ٣٢

دراسة إسلامية

١٠



قرافل الحج في العصر العثماني

- أ.د. الصنصافي أحمد القطوري..... ٣٤
- حراء: شمس متجددة أ.د. عيد الخليم عويس..... ٤٠
- أما مازلت ظمآنًا؟ «شعر» نبيلة الخليل..... ٤٣
- حين يتكلم النمل أ.د. عرفان يلماز..... ٤٤
- صباح العيد في مسجد السليمانية «شعر» يحيى كمال بياتي..... ٤٨



الحج

٢١

دور الشجر الأخضر في تخزين طاقة الشمس

- د. زغلول النجار..... ٥٠
- الأبعاد الروحية للصحة الإسلامية المعاصرة د. هدى درويش..... ٥٤
- النقد المرتقب نجيب فاضل..... ٥٨
- الكون في قلب ذرة: الهولوغرام د. زينب جوناى أونالان..... ٥٩
- ثلاثة أجيال أمام الحكمة أوركخان محمد علي..... ٦٤

علوم

٤٤



مجلة علمية ثقافية فكرية تصدر عن:  
İşık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.

صاحب الإصدار  
Publishing Director  
أنس أركنه  
mergen@hiramagazine.com

رئيس التحرير  
Editor - in - Chief  
نوزاد صواش  
nsavas@hiramagazine.com

مدير التحرير  
Managing Editor  
أشرف أونن  
oonen@hiramagazine.com

الإخراج الفني  
Graphic Designer  
أسيد إحسان الصالحى  
usalihi@hiramagazine.com

المركز الرئيس  
Hira Magazine  
Kaynak Publishing Group  
Emniyet Mah. Huzur Sok. No:5  
34676 Üsküdar-İstanbul/Turkey  
Phone: +902163186011  
Fax: +902163186314  
e-mail: hira@hiramagazine.com

الإشتراكات / مركز التوزيع  
٧ في الرامكة حي النجاج م. نصر القاهرة  
تلفون وفاكس: ٠٢٠٢٢٩٩٢٠٤  
الخط: ٠٢٠١٢٣٧٨٥٩٢٢  
مهورية مصر العربية  
sub@hiramagazine.com

الطباعة  
International printing house  
P.O BOX 312  
Public Free Zone, Nasr city  
Tel. 02022740740  
Heliopolis - Cairo  
EGYPT

رقم الإصدار  
١٣٠٩-١٨٩٩

www.hiramagazine.com



# الحج...

م. فتح الله كولن

تعميرات عديدة سابقة. والكعبة بيت التوحيد المرتبط بالملة الابراهيمية، وبالحقيقة الاحمدية قبل الخلق وفي مرحلة العماء، ورحم للنور المحمدي، وقبله جميع الأديان السماوية، ومركز للتوحيد بحيث لا يوجد هناك أي بيت أو مبنى يكون نظيرها أو مثيلاً من هذه الناحية.

يتوجه في كل عام مئات الآلاف من الناس إلى هذا المكان السامي لكي يؤديوا وظيفة العبودية لله تعالى ويزدادوا قرباً منه في هذا الشريط المبارك من الزمن بالعبادات التي يؤديونها، حيث يتنفسون مشاعرهم وأفكارهم من خلال منافذ هذه العبادات، ويجددون عهود إيمانهم، ويتظاهرون من أدران آثامهم، ويتذكر كل واحد منهم واجبه نحو الآخر ومسؤوليته تجاهه. ويؤدون جميع أمورهم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية ضمن خلفية وعلى أرضية من العبادة المتوجهة لله تعالى ومن الشعور بالعبودية له، حيث ترقى القلوب، وتوسع المشاعر حتى تبلغ طور مدّها وتضاعفها، فيعودون إلى بلدانهم بعزم جديد وبقوة جديدة وشوق نضر.

## الحج قوة للروح واطمئنان للقلب

يذهب كل واحد منا إلى الحج عندما ندرك أن الأدراّن قد أصابت مشاعرنا ولوثتها، وعندما نبدأ بالسفر نخيل إلينا أننا ولجنا من باب لم نعرفه ولم نعهده في السابق إلى عالم آخر من المعاني،

ل يأتي الحج بمعنى القصد والتوجه. ولكن ليس من الصحيح حبس معناه ضمن إطار مجرد القصد والتوجه. فالحج يطلق على زيارة تتم في وقت مخصوص بشعائر معينة لأماكن محددة. وهو عبارة عن القيام بالإحرام في أيام محددة من أيام السنة بنية الحج والتوجه للوقوف في عرفة والطواف حول الكعبة. والإحرام شرط الحج، أما الوقفة على عرفات والطواف حول الكعبة فمن أركانه.

يتوجه كل سنة مئات الآلاف من الناس إلى بيت الله من جميع أنحاء العالم ضمن شريط مبارك من الزمن، فيزورون أماكن معلومة حددها لهم صاحب الشريعة ضمن أصول وشعائر معينة حيث يؤديون واجباتهم ويتظاهرون من آثامهم، فالحج فريضة من الفرائض الخمس بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: 97).

## الحج يؤسس الوحدة الاجتماعية

الحج شعيرة إسلامية تؤسس الوحدة الاجتماعية بين المسلمين، وهي شعيرة شاملة واسعة إلى درجة أنه لا يوجد نظير لها من ناحية الشمول والوسعة فوق هذه الكرة الأرضية، ولا عند أي جماعة أخرى. وتمتد الكعبة بتاريخها وبكل ما تحويه من معان مقدسة—إلى آدم عليه السلام وإلى ما قبل خلقه، ثم إلى إبراهيم عليه السلام الذي أعاد تعميرها من جديد بعد

ونودي الشعائر، الواحدة منها تلو الأخرى، ونحس بها ونصل إلى أعماق معانيها. وبينما نحن في الطريق ونقطع الجبال المهيبة، ونشبع أعيننا وقلوبنا بعلامات الإسلام وشعائره، نشعر بهيوب نسيم الحج الدافئ. ونحن نحس بهذا التسليم الدافئ أينما كنا سواء على مقاعد السيارات أو في غرف القطارات أو البواخر أو على مقاعد الطائرات أو في غرف الفنادق أو في صالونات وقاعات المسافرين أو حتى في الأسواق. ومهما كنا متعددين على وسائل السفر هذه أو على هذه الطرق، فإن الأيام والأسابيع التي يستغرقها السفر تكون مملوءة بمعان روحية متناغمة، وبهبات وأفضال، حتى كأننا نستنشق بمشاعر القرب والوصال وبأنواع الجمال والشعر والرومانسية، فيكتسب الروح قوة والقلب اطمئناناً، ونحسب أننا أمام باب سري يؤدي إلى عالم خاص مملوء بأنواع من الجمال الساحر. وهذه الرحلة المباركة والمشاعر التي تتخللها تهبُّ لعالم الأحاسيس لدينا قابلية حدس وشعور إلى درجة أننا نحسب والاطمئنان بقلنا -ونحن بحالة روحية خليطة من البهجة، وأحياناً بحزن خفيف ناتج عن حالة المراقبة الداخلية للنفس- وكأننا نخطو في رواق من أروقة الآخرة.

يرى أصحاب النظرة الصائبة أن الكعبة تنظر من ناحية إلينا، ومن ناحية أخرى إلى ما وراء هذا العالم المادي... إلى عالم الأبد... تتجه أحياناً... وتغم أحياناً أخرى... ونستطيع أن نطالع في وجهها الذي نستطيع تشبيهه بوجه إنسان وقور ورزين، له تجربة آلاف السنين، وكأنها تريد أن تبث لنا شيئاً، أو كأنها تخاطبنا وتهمس بآيات شعر:

تعال إليّ أيها العاشق المشخفي... تعال!

هنا حريم خاص... هنا مقام الحرم، لقد طالعنا فيك أمارات الوفاء...

كان الكعبة أمٌ تمسك بأيدي أطفالها

كان الكعبة حسب موقعها ووضعها أمٌ أو جدة جالسة في أفضل مكان في البيت لتشارك أولادها وأحفادها مسرّتهم وأحزانهم، وتعيش آلامهم. تجول بنظرها فيما حولها، تحزن أحياناً وتبتسم أخرى. وبحسب الإنسان وهو يطوف حولها في مدينة أم القرى كأنه طفل تمسك أمه بيده بقوة ليشعر بمزيد من الأمان. أجل!.. إن الإنسان وهو يطوف ضمن سيل من مئات الآلاف من الناس يحس وقد تصاعد عنده الشعور بالدار الآخرة

بأنه متوجه لله تعالى بكل حب وشوق، وفارّ إليه جلّ جلاله، حتى ليكاد يغيب عن وعيه. وهو عندما يهرول وعليه ملابس الإحرام، ويرمل في الطواف وأكثر من نصف جسمه عار، تلفه الخافة من جهة، والأمل من جهة أخرى، ويعيش حالة من الانفعال وهو يسرع في طوافه هذا. ويستحيل شرح وتعريف الجو العميق الساحر الذي يحيط بالإنسان وهو يطوف بالبيت العتيق المبارك وما يشعر به أثناء الطواف والسعي من راحة نفسية ومشاعر رومانسية. وقبل أن يبدأ الإنسان بالطواف يكاد يسمع -وهو يشاهد منظر الزحام الذي يذكر بزحام يوم القيامة- صمت الحرم الإلهي المتزوي وشعره. ولا يدري أحد أي الأبواب السرية تنفتح أمام الأرواح السامقة التي تدع أنفسها تنحرف في سحر جو الطواف، ولا أي مطارق خفية يلمسونها، ولا أي نوافذ سحرية تنفتح أمامهم على العالم الآخر: حتى أننا ونحن نطوف حول البيت العتيق بمشاعر فؤارة ومتجددة في كل لحظة، نندشش ونتعجب من اللطاف التي تنهمر على قلوبنا من المناهل المفتحة في خيالنا، ومن البوارق التي تترق في صدورنا، ومن الأسرار التي تطير بأرواحنا وتنصرف وكأن في كل خطوة نخطوها بأباً سرّياً سيفتح أمامنا مع دعوة لنا للدخول منه، ونحسب أننا نكاد نقطف لذة لم نعرفها من قبل، فنحس أن قلوبنا تدق بعنف... عندها نشعر بعظمة الكعبة... هذه العظمة التي خالطت قلوبنا من قبل وسكنت فيها، وبكل عمقها... ونحس بأن نبض سحرها يسري في أنحاء جسدنا، فنرتجف من رأسنا حتى أخمص قدمنا.

ومع أن في الإمكان تفسير بعض هذه الحواطر وإسنادها إلى أسبابها، إلا أننا نبقى صامتين أمام الكثير من السننات والألطفات التي ترد إلينا متجاوزة جميع مقاييسنا وتقييماتنا. لأن الكعبة وما يحيط بها من مظاهر مادية، حتى وإن كانت تعني شيئاً، ولكن لكون أسلوها بآخرها، ومعانيها ضبابية ومحتواها مغلقاً وغير معروف، فليس باستطاعة الجميع فهم ما تريد الإشارة إليه. ومع ذلك فإن الجميع سواء أكانوا من العامة أم من الخواص، من الشباب أم من الشيخوخ... كل فرد من هؤلاء له نصيب من المعاني التي يدركها، وإن لم يستطع التعبير عنها.

#### في الكعبة سرُّ الوجود

ويجانب كون الكعبة بموقعها بين الجبال والتلال المهيبة تشبه زهرة زينة الماء منشقة عن برعمها، فهي بمثابة فانوس سحري



انظر إلى حال هذا المسكين . . .

أصبح عبداً للشجرة من شعر الحبيبة . . .

كلما غمس يده في شهد الحب . . .

ظمئ . . . فطلب الماء . . .

يتعمق بهذا وهو يسعى هنا كطوافه حول الكعبة . وفي مقابل محاولته عند الطواف حول الكعبة النزول إلى أعماق نفسه، نراه في السعي بين الصفا والمروة يسعى على خط مستقيم وقد دهمه شعور نبوي بالعيش من أجل الآخرين؛ بالضحك من أجلهم وبالبكاء من أجلهم، بل حتى بالموت من أجلهم. تراه لا يقر له قرار، ولكن لا يفلت الحساب من يده. تراه قلقاً، ولكن دون أن يتخلى عن الأمل. وتحت الأضواء الذهبية للسماء، وفي الساعات الزرقاء لموسم الحج تراه يتلوى من حسرة داء وصال جديد، ومن عدم عبوره تماماً على ما يبحث عنه. فتراه يذهب ويحيى . . . يهزول أو يمشي الهويماً . . . يصعد تلاً وينزل من تل . . . يلفه التردد والاضطراب. يتغمس أحياناً في شلال نهر الناس المهوللين في المسعى ليجر عن أحاسيسه ضمن كورس أو فرقة جماعية، وأحياناً يكون في حالة روحية يخلل إليه معها أنه لا يرى شيئاً ولا يرى أحداً وأنه يسعى ويطوف منفرداً، يبدو أمامه شيخ السيدة هاجر عليها السلام . . . تراه يتزعم وهو يرتشف من كأس قلبه:

أطلب أيها الولهان الحبيبة التي أهداها،

مثل الأنسة لتطقي لوعة الفراق . . .

أنا ظمئ، فابحث لي عن ماء في هذه الصحراء،

خوف جهنم قد جثم على قلبي وأحرقه،

كل أمني أن يرش غيث إحسانك على قلبي الماء . . .

بهذه الكلمات ينتظر رحمة تنزل عليه من السماء لتطفي نار قلبه.

وإلى جانب ناره التي تلهب روحه وتحرقه يتلوى من حسرة ومن ألم الانتظار الذي لا ينتهي. أحياناً يهيب في المسعى نسيم بارد من وراء أفق هذا العالم، ولكن هناك في الأغلب حزن يلفه الشوق، أو شوق يلفه الحزن، مع معاناة عشق قد صبغه الرجاء والأمل.

كثيراً ما يختلط الخيال بالحقائق في المسعى، فيبدو الناس هناك أحياناً وقد لفهم صمت عميق . . . وأحياناً تسمع أصوات بكاء متقطع . . . أحياناً كأنهم يساقون إلى الميزان وأحياناً كأنهم يركضون نحو الكوثر، فهم بين خوف ورجاء وبين خشية وفرحة . . . يستمرون في الذهاب والإياب وفي الصعود

يحمل سر الوجود، ومسقط سدره المنتهى، أو هي بلورة من عصاره العوالم التي وراء السماوات. وعندما يطوف الإنسان حول هذا الفانوس الخاطب بالألغاز، يحس بأمر خفية بسعة الدنيا الدائرة، ويخيل إليه أنه ينظر من خلال مؤشر مرتبط بالسدره المنتهى إلى عوالم فيما وراء السماوات.

أجل! . . . فكل من لجأ إلى حرمة، مكتسب أعماقاً في روحه ومشاعره وفكره. فعندما يفكر بوجوده وبالكعبة، ويستمر في التفكير في العلاقة بين هذين العنصرين اللذين هما مضجع النظر الإلهي، تفتح أبواب سرية تغلقهم إلى عوالم سرية لم يكن لهم عهد بها من قبل. ولا شك أن مثل هذا الشعور والحدس، ومثل هذا المعنى والروح لا يحصل إلا من اتحاد إيمان صحيح وقوي مع عيش حياة إسلامية كاملة، مع إخلاص و يقين تامين، وإلا لم يكن للقولاب المجردة مضمون حقيقي.

بفضل هذا الغنى وهذا العمق الموجودين في الكعبة، يبدو كل شيء عندما يصطبغ بصبغة الحج ويشعوره فوق قيمته عن الأوقات الاعتيادية، وبمهاة أكثر وألوان أجمل. عند ذلك يدع الإنسان نفسه لهذا السحر ليأخذ ويرتفع به ضمن حازون من النور ليصعد به ويرتفع ليصل إلى معبده. وصلاة الطواف التي يؤديها صاحب هذا الروح الواصل إلى مثل هذه الذروة تكون مثل سجدة الشكر، ومن يشرب من ماء زمزم يكون كأنه يشرب من كوثر الجنة أو يعب من شراب الوصال.

إن قُمناً بتشبيه الطواف حول الكعبة حسب التعبير الصوفي بـ«السير في الله» الذي يعد في الأكثر سياحة حول شعور مبارك ومحاولة لزيادة العمق النفسي، فإن الذهاب والإياب في مواضع السعي يمكن أن نفسره بمعاني «السير إلى الله» و«السير من الله» الذي هو عنوان العروج من الخلق إلى الحق تعالى، ومن الحق إلى الخلق. أجل! . . . ففي السعي بين الصفا والمروة يعيش الإنسان طوفان هذه المشاعر.

### في «السعي» تسكب مشاعر التضرع

يعيش الإنسان في أثناء «السعي» شعور التضرع والطلب والدعاء والاستمداد، ويعيش شعر وموسيقى الوصال وداء الوصال. فكانه لا يفتر يطارده شيئاً مهماً. ويستمر السعي حتى يظهر ما يسعى إليه. وكل ما يظهر من أثر أو أمانة في هذا السعي يضاعف اشغال الإنسان ويثير مشاعره حتى تنطق الصدور بأمثال ما قال الشاعر:

والنزول... الدقائق والساعات هناك مع كونها خفرة وحيّة فهي كثيرة الطلب، فهي تطلب الاهتمام على الدوام. وإلا فستزول وتمحي دون أن تترك أي أثر.

كلما اقتربت الأيام من العيد تلون الحفا والزمزم والمسعى بشعور خفي من الحسرة والغربة إلى اللون اللازوردي، وتبدأ الكعبة بإزلال ستارة نوافذها شيئا فشيئا. ومثل كل الحوادث التي تدل على حقيقة الفناء وتشير إليها يفهم الإنسان أنه متى آن وقت الرحيل فعليه أن يرحل، وأنه لا بد أن يأتي يوم سيرحل فيه عن هذه الدنيا، وعند ذلك ينزوي في عالمه الخاص ويعيش نوعا من الانزواء الروحي.

### في «عرفات» تسمع صرير أبواب السماء

ولكن لم ينته بعد كل شيء... فهناك طريق طويل، ورحلة طويلة تنتظر هؤلاء السائرين إلى الله تعالى. فهناك «مئى» بلغزها الغامض، وبسحرها الذي يدير الرؤوس منتصبه على الطريق تنتظرهم... وهناك «عرفات» التي كأنك تسمع فيها صرير أبواب السماء ترتقبهم... وهناك «المزدلفة» التي لن تدعهم قبل أن تذيبهم مادية روحية... وبعد خطوات هناك المكان الذي يظهرون فيه كامل تسليم أنفسهم لله ويرجمون عقولهم المعاشية الدنيوية، ويضحون عن أنفسهم ويعيشون في عوالم أحاسيسهم عبد البراءة والتطهر. ثم يتوجهون إلى الكعبة وإلى كعبة قلوبهم... يتوجهون من الله إلى الله، وينهون غروحيهم ونزولهم، وينثرون إتهاماتهم على حطوطهم بإلهام من تداعيات «الفناء في الله» و«البقاء بالله».

### «مئى» رمز سماوي للتضحية والحنان

«مئى» التي فرشت رداءها في عالم التضحية ببريقها الساحر تقوم بإسماع أشعارها حتى قمم تلال المزدلفة، وتحاول أن تدخل إليها، بل تد حتى تجاوزها لتسلم على عرفات... تسلم على عرفات، وترشد ضيوفها -الذين يلبثون عندها أربعة وعشرين ساعة- وتسلمهم إلى عرفات.

«مئى» بالنسبة إلى رمز سماوي للتضحية والحنان، ولعنى الانقياد للأمر في جو من المهابة في الأرض، وحضن دافئ. هي عنوان للاستسلام وكأنه عش للإخلاص الذي لا يطلب أي مقابل أو ثمن. و«مئى» التي يسكنها لبضة أيام من لا يملك بيتا أو مسكنا، ولا منزلا أو وطنيا مكان وموضع سرّي. فما أكثر

المشاعر التي تموج في قلب كل من لم يعلق قلبه للآخرة في هذا الموضع الحافل بالأسرار. أما نحن فنحس أن «مئى» قد امتزجت بأرواحنا إلى درجة أننا نحس وكأنها تنبض في قلوبنا وتعيش في أعصابنا. وما أن نخطو إليها خطوة حتى نشعر بأنها احتضنت روحنا (من الملفت للنظر أنها أول مكان احتضن رسولنا ﷺ)، وأنها تشير إلى الطرق المؤدية إلى ما وراء هذه الآفاق، وأنها تكملنا، وأنها تمتزج بعالم مشاعرنا، وهكذا تمتزج وتتوحد معها. وبينما نبداً بالتهوؤ في «مئى»، ونحاول أن نعطي أجنحة لأرواحنا، إذا بنا نرى عرفات وقد تزينت مثل غرفة عروس، وتهتأت لاستقبال زوارها مثل مرقاً أو ميناء أو ميدان أو قاعدة للانطلاق... تنتظر ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بهلقة من ألم به داء الوصال... ضيوف الرحمن الذين يسرعون إليها بحثاً عن احتمال جديد وإمكانية جديدة.

### إلى أحضان «عرفات» يسرع ضيوف الرحمن

لعرفات نورانية متميزة، ولزمن الذي ينقضي فيها عمق آخر، بحيث إن كل روح استطاع نيل سعادة الوصول إلى هذه الحاضرة لا يفتى ولا يموت كموت غيره من أصحاب الدنيا. وكل من قضى ساعات من عمره على عرفات يفتح طوال حياته كرهرة، ولا يشحب ولا يبهت لونه أبداً؛ فالدقائق الحانية المليئة بالعشق والوجد والشعر تترك من منافذ ومن عيون أرواحنا على الدوام وتلتهم؛ ويطن في آذاننا صوت الذين يعلنون إيمانهم المزمين بالعشق والوجد مغردين تغريد البلبال... يعلنون إيمانهم ومحبتهم وعرفانهم المثنين المستقر في أخفى مناطق قلوبهم، فيثيرون قلوبنا التي يغمرها الشوق آخذين بأيدينا إلى اللذائل لا يمكن بلوغها، ويهيئون مشاعرنا بالأنفاس ناضجة تشبع كل جوع وتضع مسحة من السحر على عيوننا -مثل استغناء الموجودات التي تملك حكمة وتجربة- وتجول بنا داخل غنى أنفسنا. الشروق في عرفات والغروب يكون دائماً في جو من المهابة والعمق. ومن المحتمل أنه ما من شاعر يبلغ يستطيع الترمم بآيات كالتى تترنم بها عرفات وتسكبها في قلوبنا، أو تهمس لنا بحكمة وجودنا وغايته. وأنا أرى أنه لا بد لكل من يرغب في الوصول إلى رقة في الروح أن يتوجه إلى عرفات مرة واحدة في عمره على الأقل، ويمتزج بجوها ويعيشه، ويتفلسف شروق عرفات وغروبها كتنفسه الأو كسجين.

## أتين الإنسان وأتين «عرفات»

يعيش الإنسان في عرفات جو الدعاء والتضرع، ويطلق الآهات الحسية في قلبه التي ترتعش منها جوانحه. أما الأدعية بعد فترة العصر فتكون أكثر عمقا، لأنها تبدو وكأنها قد تسمخت بعطر وجوٍّ من وداع حزين، وتشبه الأصوات والأفئاس أصوات الملائكة فيما وراء السماوات، حتى تصل إلى ذروة السعة والنفاء. وكلما سمع الإنسان الآهات المنبوعة من سهل عرفات يشعر من الجو الأخروي لهذه الأصوات، ومن الرقة والشفقة والرجاء الذي يحدثه الأمل في السعادة الأبدية، بأنه قد أصبح شايًا وخالداً، وأنه اتسع وولج من فرجة باب كبير. أما عندما تغرب الشمس، وينشر الظلام جناحه فوق الأفق جالبا معه مشاعر فؤارة من مشاعر الوداع، تنحل وكأن الآمال قد تجسمت وبدأت تسيل في داخلنا، وأن مشاعرنا قد تنورت بفيض عرفات وبركتها، وأنها قد انسللتنا من قوالبنا الجسدية - كما يحدث في الأحلام - وبمنا شطر نواحي روحية ومعنوية غير واضحة المعالم تماما، وأنها بدأت تكتنن كائنات عرفات، وأنها مع غروب الشمس ذبا وانتبهنا، وأنها قد تحولنا إلى آهات مثل الآهات التي تطرق أسماعنا في عرفات، بل إلى صراخ... ونحس بأننا قد تخلصنا من أثقالنا واكسبنا أجنحة، ونحس أن ماهيتنا قد تغيرت وتحولت إلى ماهية روحية وكائن روحاني، فيأخذنا الدهول وتنسمر في أماكتنا.

## «عرفات» سفح من سفوح الرحمة

عرفات ميدان يسود فيه الأمل والقلق مثل ميدان البعث والحشر يوم القيامة، وسفح من سفوح الرحمة. هي موطن لهطول الرحمة الإلهية على قلوبنا كالغيث، كأن الحوادث كلها تجري في إطار من الأمل، وكان الإنسان يتجول فيها طوال يومه بين مواكب الملائكة، ويتذكر الآخرة دوماً في قيامه وقعوده. يتجول الناس في سهلها وكل واحد منهم كأنه قد أنسلخ من كل شيء دنيوي، لا يفكر إلا بحساب الآخرة وبالميزان... يتجول كالأشباح حاملا معه قلقه وخشيته، وكذلك أمه في الرحمة الإلهية، يرجو نيل عفو ربه، ويعيش خيال لجاته وفوزه، ويستفيد من يومه الوحيد هناك ويستغله كاملاً لكي يحصل على ألطاف سعة كاملة وإلهاماتها... يستغل هذا اليوم، ولكنه ما أن يرى نفسه في موضع آخر وفي وقت دعاء ومناسبة تضرع، حتى يرى أنه لا يستطيع إلا الاندماج في جو الدعاء والتضرع.

## التوجه إلى «مزدلفة» كأنه توجه إلى الأبدية

لا مناص أمامه من هذا، لأن مزدلفة بالقرب منه تنتظره على بعد خطوات معدودة. فما أن تتلقى إشارة بأن مزدلفة في انتظارنا، حتى نترك مكاننا الذي تحف به الأضواء والأنوار في عرفات التي تبسم لنا بسيمات الأمل. ويدرج قرب السجود من الله بالنسبة إلى الركوع، نتوجه نحو مزدلفة التي تعد عنوان القرب من الله... نتوجه إلى مزدلفة وكأننا نتوجه إلى الأبدية، أو نسير إلى الله تعالى. في هذا المكان المبارك الذي يكون البدر آنذاك قد قارب على التمام، فمواجهت الأنوار في السهول والجيال، وفي السفوح والوديان... يبدو كأن السماء قد دنت من الأرض ونزلت إليها، وكأن الأرض قد ارتفعت إلى السماء، وتحولت إليها. وبينما نتحسنا هذه الأحاسيس نشعر كأننا - ونحن في طريقنا إلى الله - في ميناء جديد، وشاطئ جديد، وفي سفح جديد. وضمن أجواء مزدلفة التي لم تتغير منذ إقامة الكعبة، وفي وجوه الحجاج التي يعكس عليها نور السماء، نسمع أصوات هؤلاء العباد المخلصين الضارعين إلى الله تعالى... نسمعها في أجسادنا وفي أرواحنا وفي قلوبنا. عند ذلك نوهم أننا أصبحنا في عالم آخر، وأنها زائفة الملائكة في عالم الملكوت وتتصادق معهم... عند ذلك ندع أنفسنا تماما ونتركها في لجة رحمة الله تعالى الواسعة.

يقول ابن عباس رضي الله عنه إن سيد الأنبياء ﷺ حصل على وصفة مهمة وصريحة في المزدلفة بخصوص أمته وخلاصها، لم يستطع الحصول عليها في عرفات. وكم كان حبيبا إلى قلبي أن يكون هذا الرأي صحيحا مائة في المائة ولكان من حق المزدلفة - التي قربتنا من الله مثلما يقربنا السجود له - أن تطلب منا ضراعة خاصة، وأنبأ وبكاء آخر قربنا من الله تعالى. الأضواء المنبوعة من المصابيح الموجودة في أرجاء المزدلفة، والوجوه النيرة للحجاج، ونظراتهم التي ضيبتها الدموع، وصدورهم التي تموج بالانفعالات، تضيف إلى ساحة هذا المكان المبارك - الذي لا نعرف سوى ليله - جمالا آخر يأخذ بالآليات. أما عندما يتقدم الليل فإن سحره يزداد ويعمق. وبينما يستريح بعضهم تهيؤاً لغد حافل بالنشاط والجهد، ترى آخرين وهم يقضون الليل حتى الصباح في الصلاة والعبادة. ولا يدري أحد لماذا يفكر هؤلاء من أصحاب الأرواح السامية الذين حبسوا أصواتهم في صدورهم، ولكنهم يوصلون نبض قلوبهم إلى

قلوب أهل القلوب . . . لا أحد يدري بمآذ يفكر هؤلاء، ولا ماذا يقولون، ولا ماذا يهيمسون لأنفسهم، ولا ما يخطر على بالهم. أصوات قلوبهم تتردد على الدوام في مستويات عالية سامية، وتتسابق مع أنفاس الملائكة وتكون معها كفرسي رهان. وهؤلاء العمالقة الذين تجاوزوا الزمان، يستمعون إلى قلوبهم ويتكلمون بها. وبجانب وقيل لحن القلوب التي يترنم بها هؤلاء، بل وقيل قبل هذا، ينصتون ويحاولون سماع جميع الأنغام التي يستطيعون جمعها في كورس واحد من ضرب ريشة مشاعرهم على أوتار قلوبهم. . . . يسمعونها معا وينصتون لها معا، ثم يرتشفون ماضيهم مع يومهم هذا، وكأنهم يرتشفون نعمة مليئة بالبهجة والحبور.

وعندما تلوح علامات الفجر في الأفق تبدأ جميع المشاعر والأحاسيس التي هاجت في عرفات بالانسياب إلى مزدلفة بعد أن تكون قد تضاعفت، تنساب مختلطة بأصوات أبن وبكاء مع ابيضاض وجه السماء بعد الفجر. . . . توجه إلى الله تعالى خارج أوقات الصلوات وتوجه نحوه في الصلوات. . . . أما الأدعية المناسبة إلى الصلوات والموجودة فيها والتي تعد بعدا من أبعاد القرب من الله تعالى فتأخذ عمقا متميزا آخر.

كان هذه الأدعية ملابس من حرير تحيط بأجسادنا، أو أياد سماوية تضيء آمالنا، وتمنح السلوان لآلامنا، أو كأنها ماء ينزل بردا وسلاما على صدورنا التي تلتهب فيها النيران، أو كأنها صوت أذان يسمعوننا الحقيقفة الكبرى فيرسل الرعدة إلى قلوبنا. . . . وأحيانا تقوم بجمع أشعثات دنيانا السابقة، وتلم أجزاءها المتناثرة، وتسمعنا من المعاني عن حقيقة أنفسنا وجوهرها وعن خلودنا ودنيانا وعقبانا ما يجعلنا نكتشف أنفسنا من جديد، وتعرف على حقيقة ذواتنا، وننظر إلى الدنيا نظرة اعتبار ومن زاوية جديدة، ونشعر بقرب من دار العقبى، ونراها أكثر صفاء وأشد وضوحاً.

تستمر هذه التضمرات والتوسلات حتى شروق الشمس وظهورها في الأفق معلنة عن ميلاد يوم جديد. أما الجياه التي بقيت ساجدة حتى ذلك الحين فإنها في أثناء شروق الشمس تبدو وكأنها تشد الرحال من جديد للبرق قرب آخر، وتبدأ برحلتها. أما الآن فأمامنا «مئى» التي أتيناها سابقا وسلمنا على وديانها واديا واديا. . . . مئى التي يلجم فيها أصحاب الأرواح الصافية

منطقهم، ويعطون زمامهم بيد الروح. . . . مئى التي يدي فيها الواصلون إلى مرتبة التسليم انقيادهم. . . . مئى التي لجمت عقول ومنطق آلاف بل مئات الآلاف من الناس منذ عهد آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام، ومنه إلى سيد المرسلين ﷺ، وربطت قسيميهم للأمر وزهنهم لها بالقلب. . . . وأخيرا وبعد هذا كله فمئى هي المكان الذي تأخذ فيها النفس نصيبها بعد رحم الشيطان، وفيها يتم التمثيل الجماعي لموضوع التبعيد الذي يعد أساس العبودية.

وما أكثر ما يتم عمله هناك بجانب رمي الجمرات؛ تقديم الأضاحي والحلق وتبديل الملابس الإحرام ثم أداء فرض الطواف الذي يتم في جو من مشاعر روحية عالية. . . . هذا هو بعض ما يؤدي هنا.

### التحلل من جميع الأنانيات

يقوم الحاج منذ مغادرته بيته وطوال طريق رحلته بالتحلل من جميع أنانياته، الواحدة منها تلو الأخرى. أما من ناحية حياته القلبية والروحية فيتكاثر ويتزين مثل قطعة مزينة من الحرير. أجل! إن الإنسان وهو في رحلته النورانية هذه يعرف على أقدم الحقائق التي لا تبلى أبدا، وعلى الحقائق الأزلية التي تبقى نضرة على الدوام، ويتمتع معها. يصل هناك إلى أحوال لن ينساها أبدا. أما بالنسبة لمن يدرك حقيقة وكنه ما يؤديه في هذه الرحلة الأرضية/السماوية، والألطاف الإلهية المعنوية التي تنهمر عليه، والذكريات التي يحصل عليها، فإنه يكسب عمقا قلبيا وارتباطا أقوى بالدار الآخرة. وتظل ألوان السماء، وأصوات الحجيح غلغا مخيلتنا، وتلف أرواحنا، وتشخص أمام أعين أرواحنا طوال أعمارنا.

لا يمكن ذكر أي مكان آخر غير الكعبة وما يحيط بها، له نفس الجاذبية والسحر، وإن كان هذا مشوبا بشيء من الحزن. ففي حرما يشاهد الإنسان في كل حين جمالا أسطوريا، ويقطف هناك كل شيء وكأنه أنضج فاكهة وأحلاها، ويأكلها. والمخطوون الذين يصلون إلى سعادة غمرغ وجوهم هناك سيخصلون من وهم البحث عن مكان عبادة آخر، وحتى غروب عمرهم وانتهائه لن يستطيعوا نسيان السحر ذي البعد الأخروي لهذا المكان أبدا. ❦



## ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل (٢)

# شبابية القرآن

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي \*



ثم إن الأستاذ رحمه الله تعالى أخذ يعرض من الأمثلة التطبيقية ما يؤكد فتوة وشبابية القرآن الباقيين في كل عصر، على حدّ تعبيره .

وأقول: إن هذه المزية واحدة من أخطر وأروع المزايا التي لا تنطبق إلا على كتاب الله عز وجل: القرآن . غير أن هذه المزية لا تولد وتستبين إلا في رحم الأجيال والعصور المتعاقبة . فالمسلمون في صدر الإسلام وعصوره الأولى لا يستطيعون أن يلاحظوا فيه هذه المزية لجلبهم بما ستأتي به العصور اللاحقة من أعراف وتطورات ومعارف وعلوم جديدة، حتى يستبين لهم موقف القرآن منها وحديثه عنها . أما اليوم وقد تراكمت على ساحة التاريخ ألوان من التقلبات والأفكار والاكتشافات والأحداث، متجمعة من سلسلة العصور المتلاحقة، فإنه بوسعنا، إن عدنا نتأمل في خطاب القرآن لأصحاب هذه العصور كلها، أن نتبين جدّة القرآن، أو شبابه على حدّ تعبير بديع الزمان، من خلال تألقه مع سائر ما قد مرّ أو يمرّ اليوم على دنيا الناس من تطورات في أعرافهم وأفكارهم وظروفهم وعلومهم .

يركز بديع الزمان حديثه عن جدّة القرآن، رغم تقادم ذلك العصر الذي نزل فيه، على ما يحمله القرآن للناس من مبادئ ودساتير وقيم حضارية وسلوكية، وبين لنا مدى جذبتها ومدى احتياج الناس في كل عصر إليها، في مقابل تهافت الجديدي الذي يخالفه والذي تبندعه اجتهاذات الناس مع تقلبات الأزمنة والعصور، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة .

يعبر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله عن شبابة القرآن وفتوته فيقول «إن القرآن الكريم قد حافظ على شبابه وفتوته حتى كأنه ينزل في كل عصر نظيراً فنياً . نعم، إن القرآن الكريم، لأنه خطاب أزلي، يخاطب جميع طبقات البشر، في جميع العصور خطاباً مباشراً، يلزم أن تكون له شبابة دائمة كهذه . فلقد ظهر شاباً، وهو كذلك كما كان . حتى إنه ينظر إلى كل عصر من العصور المختلفة في الأفكار والشبابة في الطابع، نظراً كأنه خاص بذلك العصر، ووفق مقتضياته، ملقناً دروسه ملقناً إليها الأنظار»<sup>(١)</sup>.

«إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم، وتتغير وتبدّل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ بحيث تظهر متانتها أكثر، كلما مرت العصور»<sup>(٢)</sup>.

### عصر أصمّ أذنيه عن سماع القرآن

«نعم، إن هذا العصر الذي اغترّ بنفسه، وأصمّ أذنيه عن سماع القرآن أكثر من أي عصر مضى، وأهل الكتاب منهم خاصة، أحوج ما يكونون إلى إرشاد القرآن الذي يخاطبهم بـ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ حتى كأن ذلك الخطاب موجه إلى هذا العصر بالذات، إذ إن لفظ «أهل الكتاب» يتضمن معنى أهل الثقافة الحديثة أيضاً . فالقرآن يطلق نداهه يدوي في أجواء الآفاق وبمادّ الأرض والسبع الطياق بكل شدة وقوة، وبكل نضارة وشباب، فيقول ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤)»<sup>(٣)</sup>.

## القرآن يخاطب جميع المستويات الثقافية

إلا أنني أتصور أن هذه الجدة المستمرة أبعت على الدهشة وأكثر إثارة للعجب، عندما نقف عليها من خلال التعابير القرآنية عن حقائق وظواهر كونية، تتفاوت مدارك الناس في رصدها واستيعابها، إذ يكون فيهم الجاهل الذي لا يدرك منها إلا ظاهر ما يرى، ويكون فيهم المثقف الذي يضيف إدراكه إلى ذلك الظاهر المرئي بعض خفاياه العلمية، ثم قد يأتي في أعقاب هذا وذلك من قد حولته معارفه أن يضيف إليهما معلومات معمقة لا يتبينها إلا أصحاب الاختصاص أو الذين ساعدتهم عصورهم العلمية على معرفة هذا المزيد.

وتنظر إلى حديث القرآن عن هذه الظواهر الكونية، فتجده يعبر عنها بألفاظ دقيقة وبأسلوب متميز، بحيث يدرك الجاهل من حديث القرآن عنها ما يتطابق مع الظاهر المرئي الذي وقفت عنده مداركه؛ ويدرك المثقف من الحديث ذاته بالإضافة إلى ما فهمه الأول، ما يتطابق مع بعض تلك الخفايا العلمية التي علمها، ويرى العالم المتخصص الذي جاء في العصور التالية في الحديث ذاته، بالإضافة إلى دلالاته على المعنى السطحي الأول، والمعنى الخفي الثاني، دلالة واضحة على عمق علمي لا يدركه إلا أصحاب الغوص والاختصاص.

هذا مع العلم بأن دلالة الصيغة القرآنية على هذه الطبقات أو الدرجات الثلاث تأتي واضحة متساوقة، دون أي تحمل أو تكلف مما قد يطيب لبعض الناس فعله، عندما يتمحرون في تحميل بعض الجمل أو الألفاظ ما لا تحمله من المعاني.

انظروا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضُ قَرَشًا نَافِعًا الْمَاهِدُونَ﴾ (الذاريات: ٤٨). إن الأعرابي عندما سمع هذا الكلام الرباني في صدر الإسلام، لم يشك أنه وصف لواقع مرئي مشاهد من صفة الأرض ذات الامتداد المرئي لكل ذي عينين، وهو امتداد يسير للناس الذين يتحركون على ظهرها أن يمارسوا بسهولة ويسر أسباب معاشهم. أما العلماء المدققون والمتخصصون الذين جاؤوا فيما بعد، فلم يشكوا عندما سمعوا هذا الكلام الدقيق، أن الحديث إنما هو عن الأرض كلها، أي بمعناها الكلي، أي فلاتمتداد وصف لسائر أجزائها السطحية.

فإن سرت مع امتداد الأرض إلى أقصى الشرق، لن تجد لها امتداد أي حافة أو نهاية، وإن سرت مع امتدادها إلى أقصى الغرب، رأيت الأمر كذلك، وكذلك إن سرت متجهًا إلى

الشمال أو الجنوب. وهذا يعني أن الأرض ممتدة في انحناء مستمر إلى أن يتكون لسطحها محيط دائري مكور.

وهذا المعنى ذاته هو الذي ينبثق، بهذا التدرج، من قول الله تعالى ﴿وَالْيَ الْأَرْضُ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ٢٠). وهذا هو قرار القرآن قبل أن ينطق به أو يدركه أحد من الناس.

فانظروا إلى المعنى السطحي الأول، كيف يتممه المعنى الدقيق الثاني، في تناسق وثلاث، أي دون أن ينسخ الثاني منهما الأول، ليتكون من العبارة التي تحمل المعنيين الخطاب الشباني المتجدد، كما يقول بدیع الزمان، لسائر طبقات الناس في سائر العصور المتوالية.

كلمة «دحا» تأتي في اللغة العربية بمعنى عظم، وبمعنى وسع، وبمعنى كوّره؛ وقد تكررت بمعناها الثاني والثالث في هذه الآيات لابن الرومي:

إن أنس، لا أنس خبازاً مررت به  
يدحو الرفافة وشك الملح بالبصر  
ما بين رؤيتها في كفه ككرة  
وبين رؤيتها قوراء كالقمر  
إلا بمقدار ما تتداح دائرة  
في صفحة الماء يلقى فيه بالبحر

ويقول الله عز وجل ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: ٣٠) يقرأ هذا الكلام العربي الذي لا يعلم عن الأرض وهيئتها إلا الشكل الذي يراها عليه وهو الاتساع والبسط، فيفهم من قوله «دحاه» هذا المعنى الذي يراه. وهو فهم صحيح يطابق المعنى اللغوي للكلمة. ثم يقرأها العالم الفلكي أو المثقف العادي في هذا العصر، فيفهم بالإضافة إلى ما تحمله الكلمة من المعنى الأول، ما تدل عليه أيضاً من معنى الاستدارة والتكوير.

وإننا نلاحظ كيف أن الكلمة تحضن كلا المعنيين، على درجتين من السطحية والعق؛ وكيف أن المعنيين مندرجان في تساوٍ وتآلف، أي دون أن يقع بينهما أي تشاكس أو تعارض. وهكذا فالكلمة ذات جدة إذ سمعها الأعرابي قبل خمسة عشر قرناً، وهي ذات جدة أيضاً إذ يصغي إليها العالم المتخصص أو المثقف من الناس اليوم.

ولنعرض مؤيداً من الأمثلة فنقول: يصف القرآن القمر دائماً بالإثارة، في حين يصف الشمس بالإضاءة أو السراج. فهو يقول مثلاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾

إننا نتحدث عن دلالات لغوية ثابتة يحضنها كتاب الله تعالى منذ فجر نزوله، طبقاً لقواعد تفسير النصوص، وقيل أن تتطور المعارف ويسير الناس في طريق اكتشاف الحقائق العلمية المتنوعة.

إن القرآن يقول منذ فجر نزوله ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۖ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ (المرسلات: ٢٥-٢٦). والكِفَاتُ معناه في اللغة الجذب، بمعنى الآية إذن: ألم نجعل الأرض جاذبة لكم إذ تنتقلون على وجهها وأنتم في طور الحياة، وتُدْفَنون في باطنها إذا حاق بكم الموت. ولقد فسر العلماء الآية بهذا المعنى بسائق من ضرورة الدلالة اللغوية، قبل أن يكشف الغريبيون ما يسمى بجاذبية الأرض، بل إن يونس بن قره هُدَي إلى هذه الجاذبية ووجودها قبل اكتشاف الغريبيين لها بآمد طويلة اتباعاً لهذا الذي نطقت به دلالة القرآن.

إننا هنا نتحدث عن المواقف التي يهدي القرآن فيها الناس إلى الحقائق الكونية والعلمية، ولسنا نتحدث عن المواقف التي يستجر فيها القرآن من قبل بعض الناس إلى النظريات والافتراضات العلمية، وشتان بين الموقفين.

كل ما في الأمر أننا نقف مع بدیع الزمان رحمه الله أمام هذه الجدة المستمرة في كتاب الله؛ إذ يخاطب فئات الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم؛ فلا يحمل القرآن الجاهل من الناس من معانيه المزاكمة أكثر مما يطبق، ولا ينجلي على العالم منهم بتلقيه من معانيه تلك كل ما يطبق. وكل ذلك يتم ضمن دلالة لغوية مستقرة ثابتة منذ صدر الإسلام وأول نزول القرآن.

أما من حيث جدة المبادئ والقيم التي يخاطب بها القرآن الناس في كل عصر، دون أن تشيع أو تتقادم، والتي يركز عليها بدیع الزمان ويضرب لها أمثلة عديدة، فهو رحمه الله إنما ينيه من ذلك إلى أمر بالغ الأهمية، وهو أن الإنسان قد يتقدم صُعْدًا في مجال المعارف والعلوم، كلما امتد به الزمن؛ ذلك لأن أداة المعرفة والعلم هي الفكر والعقل، وحركة كل منهما في اجتياز معلوم إلى معلوم آخر أشبه ما تكون بالحركة الآلية التي تقوم على الاندفاع الذاتي؛ أما فيما يتعلق بمجال الأخلاق والمبادئ والقيم، فالشأن في الإنسان كلما امتد به الزمن وتعرض لتطورات المعاش واختلاف أسبابها، أن يتراجع في ذلك كله إلى النوراء. ذلك لأن التقدم المادي والازدهار المعاشي من شأنهما أن يزجَّ بالإنسان في حالة من الترف والاستكبار

(يونس: ٥) ويقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان: ٦١) ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (نوح: ١٥-١٦).

### معاني المير والمضيء والسراج في القرآن

والجامع المشترك في اللغة بين معنى المير والمضيء والسراج، هو نقبض الظلمة. ثم إن كلمة المير تنفصل عن المضيء أو السراج في أن المير هو ما ينعكس إليه النور من جرم آخر، أما المضيء والسراج فهو كل ما ينبثق منه النور حرارة، أما المير فلا يطلق إلا على ما ينعكس إليه النور دون أن يثب أي حرارة.

إذن، فحديث القرآن عن كل من الشمس والقمر يحمل معنى ذا ثلاث درجات: سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ألا وهو الجامع المشترك الذي هو نقبض الظلمة؛ وعمق يصل إليه المتأملون، ألا وهو التنبيه إلى أن ضياء الشمس مصحوب بحرارة أما نور القمر فخال ومجرد عنها؛ وجذر بعيد يدركه الباحثون المتخصصون أو المثقفون من أهل هذا العصر، ألا وهو أن القمر ينعكس إليه الضياء من جرم آخر هو الشمس، في حين أن ضياء الشمس ينبعث من داخلها.

وهكذا فإن هذه الآيات تفيد كل فئات الناس على اختلاف ثقافتهم واختلاف عصورهم حسب قدراتهم الفكرية، دون أن يقوم أي تعارض علمي بين حظوظ هذه الفئات فيما يفهمونه من معانيها. إذ هي معان لغوية صحيحة متساقطة ومتدرجة من السطح إلى العمق فالجذور.

حقاً إنها شياطة علمية دائمة مستمرة تتسم بها كتاب الله عز وجل، الذي يمحّر أطوار المعارف والعلوم في جدة تستعصي على التقادم، وهيمية علمية سامية لا تقهر.

ولكن إياكم أن تصوروا أننا بهذا الذي أوضحناه نجح إلى موقف أولئك الذين يحملون نصوص القرآن كل ما يروق لهم من النظريات أو التصورات العلمية الراجحة، في تكلف لا موجب له، وبطريقة هي أشبه بالبعث بالقرآن والتلاعب بقانون دلالاته!..

إننا لسنا من هؤلاء العابثين في شيء، ولسنا ممن يدعون إلى إخضاع القرآن لقراءة معاصرة تجعله مرآة دقيقة ينطبع عليها سائر التيارات الفكرية الجانحة والعقائد والتصورات الزائفة والتشوهات العلمية المتداولة.

والاعتداد بالقوة والتنكر لموازين الحق .

وهذا هو مصداق قول الله عز وجل:  
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۚ إِنَّ رَأْيَهُ لَشَفِيفٌ﴾  
(العلق: ٦-٧) .

### تجديد النفس والاحتكام إلى المبادئ

ومن هنا تظل دعوة القرآن الإنسان إلى تحكيم المبادئ والقيم ، متمثلة في استخدام القوة لرعاية الحق ، وإحلال التعاون محل الاستبداد ، تتسم بالجدة والشبابية على حدّ تعبير الأستاذ رحمه الله ، مهما تطور أو تقادم الزمن .

وهذا هو السبب في حاجة الإنسان الدائمة إلى الانضباط بالدين الحق .

ذلك لأن المجتمع الإنساني مدعو بل مضطر إلى أن يجدد نفسه دائماً كي لا يقع في آفة التراجع إلى الاستبداد والظلم من جراء تألق الحياة المادية وازدهار أسباب المعيشة أمام الإنسان . والسبيل الوحيد إلى تجديد نفسه أن يشدّ نفسه دائماً إلى وصايا القرآن وأوامره وعظائمه . وعندئذ يظل المجتمع الإنساني صاعداً في طريقين من التقدم: طريق التقدم في المعارف والعلوم وأسباب المنة والقوة ، وطريق التقدم على سلم الأخلاق أو القيم الإنسانية الرفيعة التي لا تعرف التفاتاً إلى الوراء ولا تتجه إلا صعداً نحو الجدة وفتوة المجتمع الإنساني .

« جامعة دمشق ، كلية الشريعة - سوريا .

الهوامش:

- ١ . كلمات رسائل النور - الكلمات ص ٤٧١ ترجمة: إحسان قاسم الصالح .
- ٢ . المصدر نفسه ، ص ٤٧١ .
- ٣ . المصدر نفسه ، ص ٤٧١-٤٧٢ .



أي وليد يا ترى يتحرك في أحشاء الدنيا...؟  
وأي محاضٍ عسير تعانيه...؟  
أهي علي وشك الولادة...؟  
لقد ظلّت تدور وتتاوه، وتستولد الأزمان...  
إنها تواقّة إلى زمن الإيمان الأول...  
إنها تلد حفيداً جديداً هو في الصفاء والنقاء  
كجده الأول...!

ذلك الجد العظيم زارع الأرض بحمرة الورود.  
تُرى أنحلّم مع الأرض بالأجداد...؟  
أم الأجداد هم الذين يحملون بنا...؟

الحياة الحقيقية قائمة بالعلم وبالعرفان. فمن أهمل التعلم والتعليم مات وإن كان على قيد الحياة، لأن الغاية الكبرى من خلق الإنسان هي النظر والتأمل وتحصيل المعرفة وإشعاع ذلك على الآخرين.

# وسطية الامة الإسلامية

د. محمد عمارة \*

انعدام الموقف الواضح واتخذ أمام القضايا والمشكلات، لأنها هي الموقف الأصعب الذي لا ينحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين فقط، فهي بريئة من المعاني «السوقية» التي شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام، وهي كذلك ليست «الوسطية الأرسطية» كما يحسب كثير من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها؛ لأن الوسطية الأرسطية التي رأى بها أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين هي في العرف الأرسطي أشبه ما تكون في توسطها «بالنقطة الرياضية» التي تفصلها عن القطبين -الرذيلتين- مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية. إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين يتوسطهما، وليست هكذا الوسطية في اصطلاح الإسلام.

إنها في التصور الإسلامي موقف ثالث حقا، وموقف جديد حقا، ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لا يعني أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما ومكوناتهما. إنه مخالف لهما، لكن ليس في كل شيء؛ وإنما خلافه لهما منحصر في رفض الانحياز والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها، منحصر في رفضه الإيصار بعين واحدة، لا ترى إلا قطبا واحداً. منحصر في رفضه الانحياز المغالي، وغلو الانحياز. ولذلك، فإنها -كموقف ثالث، وجديد- إنما تمثل تميزها، وممثل جدتها في أنها تجمع وتؤلف كل ما يمكن جمعه وتأليفه -كسقط غير متنافر ولا ملحق- من السمات والقسمات

في الوسطية الإسلامية تتمثل السمة والقسمة التي تجدد -بحق- أخص ما يخص به المنهج الإسلامي عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات؛ بها انطلقت الحضارة الإسلامية في كل القيم والمعايير والأصول والمعاليم والجزئيات، حتى نستطيع أن نقول: إن هذه الوسطية، بالنسبة للمنهج الإسلامي وحضارته هي «عديسة الامة» أشعة ضوءه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضاً.

وهي قد بلغت وتبلغ هذا المقام، لأنها -بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل- إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعُدو عليها عوارض وعاديات الآفات. . . تمثل الفطرة الإنسانية في بساطتها وبدايتها وعمقها وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها. إنها صبغة الله، أراد سبحانه وتعالى لها أن تكون صبغة أمة الإسلام، وأخص خصوصيات منهج الإصلاح بالإسلام، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣). إنها الحق بين باطلين؛ والعدل بين ظلمين؛ والاعتدال بين تطرفين؛ والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الراض للغلو إفراطا وتقریطا؛ لأن الغلو الذي يتكَبُّ الوسطية هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبي الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان، يفتقر توسط الوسطية الإسلامية الجامعة وإمكانات الشهادة والشهود.

وهذه الوسطية الإسلامية الجامعة ليست ما يحسبه العامة



والمكونات الموجودة في القطبين النقيضين كليهما. وهي لذلك «وسيطية» «جامعة»، تتميز عن تلك التي قال بها حكماء اليونان.

### الوسيطية الجامعة

إن «العدل» - والوسيطية هي العدل بين ظلمين - لا يعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما، كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين. وإنما يعتدل بالوسيطية الجامعة التي تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبيّنات الفريقين المختصين - كفتي الميزان -. ولهذا كان قول رسول الله ﷺ: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا» رواه الإمام أحمد، كان التعبير عن حقيقة مفهوم الوسيطية في الإسلام.

وفي ضوء هذا المضمون الإسلامي لمصطلح «الوسيطية» - وهو المضمون الذي ميزها بوصف «الجامعة» - نقرأ كل الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذه الخصيص من خصائص المنهج الإسلامي في الإصلاح. فأمة الإسلام هم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧). والمنهج الوسيط في الإنفاق تشير إليه آيات من مثل: ﴿وَأَنْتَ أَقْرَبُ حَقًّا وَالْمَسْكِينِ وَأَهْلَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٦)، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩). فلا الرهبانية النصرانية والنسك الأعجمي ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف.

وإذا نحن شطنا معرفة الامتياز العظيم الذي تمثله «الوسيطية الجامعة» وتحققه للمنهج الإسلامي في الإصلاح، والشمول الذي تبلغه تأثيراتها عندما تراعى وتوضع في الممارسة والتطبيق، فإننا نستطيع ذلك عندما ندرك كيف مثلت هذه الوسيطية - وتمثل - بالنسبة للإصلاح الإسلامي طوق النجاة من تمزق وانشطارية وثنائية المتناقضات، على النحو الذي حدث في حضارات أخرى، وفي الحضارة الغربية على وجه التحديد.

فهذه الوسيطية الجامعة لم يعرف المنهاج الإسلامي التناقض الذي لم يجد له حلًا بين: الروح والجسد، الدنيا والآخرة، الدين والدولة، الذات والموضوع، الفرد والجموع، الفكر والواقع، المادية والمثالية، المقاصد والوسائل، الشات والمتغير، القديم والجديد، العقل والنقل، الحق والقوة، الاجتهاد والتقليد، الدين والعلم... إلى آخر الثنائيات، التي عندما افترقت منهج النظر إليها قسمة «الوسيطية الجامعة» حدث الانقسام الحاد والشهير في فلسفة الحضارة الغربية إلى «ماديين» و«مثاليين» و«مادية» و«مثالية»، و«عقلانيين» و«لاهوتيين»، و«متمدين» و«فلاسفة» و«مؤمنين»... منذ العهود اليونانية لتلك الحضارة وحتى نهضتها الحديثة وواقعها المعاصر.

لقد مثلت الوسيطية الإسلامية الجامعة لحضارتنا ومنهاج الإصلاح الإسلامي طوق النجاة من هذه الثنائيات وتمزقاتها وغلوها. ولذلك، كانت المعيار لإسلامية مناهج النظر الفكري ومناهج الإصلاح بالإسلام.

ولقد تألفت الدعوة الإصلاحية للإمام محمد عبده حول بدايات القرن الرابع عشر الهجري في واقع حضاري تميز بسيادة الجمود والتقليد في دوائر طلاب العلم الديني - وهو غلو يحجب الدين والإصلاح الإسلامي عن الواقع والحياة - فيخلق الفراغ الديني الحق في هذا الواقع، ويعد المنهاج الإصلاح الإسلامي عن أن يكون هو سبيل الأمة لنهضة والتقدم.

كما تميز هذا الواقع الحضاري بزحف النموذج الغربي في التقدم والتحديث على الشرق الإسلامي، ذلك النموذج الذي وفد إلى بلادنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لعالم الإسلام. وهو نموذج قد تميز بالغلو الشديد، وذلك عندما انحاز إلى عالم الشهادة رافضا عالم الغيب، وإلى الدنيا في مواجهة الدين، وإلى الفردية في مقابلة الجماعة، وإلى الأرض في رفضه لحاكمية السماء وشريعتها، وإلى المادية والوضعية في مقابلة الروح، وإلى القوة

الوسيطية الجامعة، هي منهاج الإسلام في الحياة، مختلف ميادين الحياة الفردية والاجتماعية؛ فإن العقل المسلم يستطيع أن يفقهها ويطبقها في سائر الميادين.

لقد مثلت الوسطية  
الإسلامية الجامعة  
لخصارتنا ولنهاد  
الإصلاح الإسلامي  
طوق النجاة من  
التثاثيرات وتمزقاتها  
وغلوها.

في مواجهة العدل، وإلى الصراع بدلاً من التدافع، وإلى العقل في مقابلة النقل والوجدان... فملاً هذا النموذج الغربي القضاء الفلسفي والثقافي والسياسي بحشد غير من «التثاثيرات المتنافضة» التي عبرت وتعبّر عن غلو التفریط، المقابل لغلو الإفراط الذي مثله الجمود والتفكير والتقليد السائدان بين طلاب علوم الدين في شرقنا الإسلامي في ذلك التاريخ.

ولجافة كلا الموقفين -جمود طلاب علوم الدين، وجحود طلاب العلوم الغربية- لمنهاد الوسطية الإسلامية في الإصلاح والنهوض، كان حرص الإمام محمد عبده على تميز منهجه في الإصلاح بسمه الوسطية الإسلامية الجامعة. فكتب عن تميز موقفه ومنهجه ودعوته بهذه الوسطية عن أهل الجمود والتقليد للموروث، وأهل الجمود والتقليد للوفاة الغربي فقال: «ولقد خالفتُ في الدعوة إليه (أي إلى منهجه في الإصلاح) رأيي الفتيان العظيمين اللذين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم»<sup>(١)</sup>.

ثم تحدث عن أن هذه الوسطية التي انحاز إليها وتميز بها منهجه الإصلاحية ليست خياراً ذاتياً، وإنما هي منهج الإسلام، الذي تميز به عن العلوم الذي أصاب أهل الشرائع الأخرى، «فلقد ظهر الإسلام، لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً جامداً، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك، أخذاً من كلا القليبين بنصيب، فتوافر له من ملازمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره. ولذلك سمي نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية»<sup>(٢)</sup>.

فالوسطية هي السمة المميزة للإسلام، وهي السبب الذي جعل الإسلام دين الفطرة البشرية السوية، فكان لذلك سلم الارتقاء على درب المدنية، بشهادة الخصوم قبل الأصدقاء.

وبهذه الوسطية التي تميز بها الإسلام تميزت أمة الإسلام عن أمم الشرائع السابقة التي حُرّف بعضها إلى الغلو المادي، وحُرّف بعضها الآخر إلى الغلو

الروحاني، وبعبارة الإمام محمد عبده: «ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليد المادية الخضة، فلا همّ له إلا الخطوط الجسدية، كاليهود والمشرّكين؛ وقسم تحكم عليه تقاليد بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وُتّيت الهند أصحاب الرياضات. وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها الحقين؛ حق الروح وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية. وإن شئت قلت: إنه أعطاها جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان ومَلَك، فكانت له قال: جعلناكم أمة وسطاً، تعرفون الحقّ وتبلغون الكماليّن»<sup>(٣)</sup>.

ولأن السنة النبوية هي البيان النبوي لبليلغ القرآني، كانت سنة رسول الله ﷺ وطريقته في العمل والقول التجسيد لمنهاد الوسطية الإسلامية. ويكفي أن تتأمل مع سيرته الشريفة قوله ﷺ: «إن هذا الدين ممتن، فأوغلوا فيه برفق» (رواه الإمام أحمد)، و«إن دين الله عز وجل يسر» (رواه البخاري)، و«إن الله عز وجل لم يعيّن معقلاً، ولكن يعيّن مسيراً» (رواه مسلم والإمام أحمد)، وعن عائشة رضي الله عنها: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين في الإسلام إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه» (رواه البخاري).

### الوسطية منهج الإسلام

ولأن هذه الوسطية الجامعة بهذا المعنى، هي منهج الإسلام في الحياة، بمختلف ميادين الحياة الفردية والاجتماعية؛ فإن العقل المسلم يستطيع أن يفتقها ويطبّقها في سائر الميادين:

■ «الكرم» وهو خلق وسلوك وسط ليس غريباً تماماً عن القطين النقيضين: «الشح» و«الإسراف»، وإنما هو جامع منهما سمات هذا الكرم ومكوناته، جامع لقدّر من «التدبير والاقتصاد» ولقدّر من «البدل والعطاء»، ففيه اجتماع لعناصر الحق والعدل من القطين المتناقضين.

■ وكذلك «الشجاعة» نجدها وسطاً بين «الجبن» و«التهور»، لكنها جامعة بين مقادير من «حذر» الجبان، ومقادير من «إقدام» المتهور، فلا هي متحيزة لأحد النقيضين، ولا هي مغايرة كل المغايرة لهما معا.

■ وفي فلسفة الإسلام في الاقتصاد والثروات والأموال، نجد «الاستخلاف» وسطاً بين «الحرية المطلقة» في الأموال، وبين الإلغاء الكامل للحرية في الأموال. فالإنسان مالك وحر ومستثمر ومنفق ومستمتع، لكن كوكيل وخليفة في الملكية الاجتماعية عن المالك الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى. فكل حقوق الإنسان في الثروات والأموال محكومة بحقوق الله وفرائضه في التوازن والتكافل بين الأمة.

■ وفي الموقف من تمايز الناس إلى طبقات اجتماعية، يقف الإسلام بوسطيته الجامعة بين الحرية المطلقة التي تضر التفاوت الفاحش بين الطبقات، وبين «الطوباوية» التي حلت بمجموعات لا طبقية. فطبيعي وضروري -بناء على تفاوت الطاقات والهمم والجهود- أن يتمايز الناس في المكاسب والخطوط، لكن الوسطية تفرض وقوف هذا التمايز عند حدود التوازن والتكافل، الذي يجعل الأمة جسداً واحداً، تتكافل أعضاؤه، مع تفاوت الأهمية والعطاء والحاجات لكل عضو من هذه الأعضاء.

وبعبارة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في عهده إلى واليه على مصر «الأشتر النخعي»: «واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض»<sup>(٤)</sup>.

■ وفي الموقف من العلاقات بين الحضارات تقدم الوسطية الإسلامية منهاج «التفاعل» الذي هو وسط بين غلو في «الانغلاق والعزلة»، و«التبعية والتقليد». ففي «التفاعل» استلهم لكل ما هو مشترك إنساني عام، مع التمايز في الخصوصيات المتعلقة بالهويات العنصرية والثقافية.

■ كما تقدم الوسطية الإسلامية منهاج «التدافع» عندما يختل التوازن في العلاقات بين الحضارات

وكذلك الطبقات، لأن هذا «التدافع» هو متن ووسط، يمثل الحراك الاجتماعي الذي يزيل الخلل، ويعيد العلاقات إلى مستوى التوازن والعدل، مع الحفاظ على تعدد وتنوع وتمايز الفراء المختلفة. فهو «التدافع» ووسط بين «السكون» الذي ينزل الحلل ليستنحل، وبين «الصراع» الذي يصرع فيه القوي الضعيف، فينبهي التعددية والتمايز والاختلاف.

لقد رفض القرآن منهاج «الصراع» لأنه يزيل سنة التعددية «سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنَاءَ يَوْمٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا تُحَلُّ غَاوِيَةً فَمَكَرَ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ» (الحاقة: ٧-٨) بينما «التدافع» حراك يعدل المواقف، مع المحافظة على التعدد والتنوع والاختلاف: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (فصلت: ٣٤).

تلك هي الوسطية الإسلامية الجامعة، صبغة الله التي أرادها لأمة الإسلام، والظفرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات، وعدسة الرؤية اللامة لقسمات المنهج الإسلامي ومعالم تصوره في «الفكر» و«الحياة». وصدق الله العظيم إذ يقول: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة: ١٤٣). وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة ووسطاً»<sup>(٥)</sup>.

(٥) كاتب ومفكر إسلامي - مصر.

#### الهوامش

١. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده؛ ج ٢ ص ٣١٠. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. ط. دار الشروق/ القاهرة ١٩٩٣ م.
٢. المصدر السابق. ج ٣ ص ٢٨٧.
٣. المصدر السابق. ج ٤ ص ٣٣٣.
٤. «نهج البلاغة» ص ٣٣٧ يشرح الإمام محمد عبده. وتحقيق وتعليق: محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا. طبعة دار الشب / القاهرة.

الوسطية الإسلامية الجامعة هي صبغة الله التي أرادها لأمة الإسلام، والظفرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات، وعدسة الرؤية اللامة لقسمات المنهج الإسلامي ومعالم تصوره في الفكر والحياة.

# فلسفة الموت عند بديع الزمان سعيد النورسي

أ.د. مصطفى بنحمزة\*

الموت وجودياً سواء كانت جوهرًا أو عرضاً.

لكن الإشكال رغم هذه التعاريف لا يزول، ويظل العقل ينظر إلى الموت على أنه مجرد عدم ومجرد اضمحلال وتوقف، وهذه الأعراض لا يمكن أن تكون أشياء وجودية لأنها نقائص لأعراض أخرى وجودية ماثلة. وهذا ما يفرض تلمس الجواب في تحليلات أخرى قادرة على تقريب المعنى القرآني للموت بعمق واستبعاد التكلف والتحمل؛ وهو الأمر الذي شجّع فيه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو يلامس بعقريّة نادرة وبعمق قليل النظر قضية كون الموت مخلوقاً رغم أن الظاهر يوحي بخلاف ذلك.

## النورسي وفلسفة الموت

لقد أوضحت أنه على كثرة ما تناول المتأولون قضية الموت محاولين تصورها ضمن حدود العطاء القرآني، فإن المتبع لا يجد من كل تلك الآراء شفاء لغليل ولا حلاً للإشكال، وإنما يجد الموضوع منهم مظلماً في كثير من جوانبه، وبذلك تظل الحاجة قائمة إلى تحليل جديد.

لقد كان الإشكال قائماً ولا شك في أذهان بعض المشتغلين بمثل هذه القضايا الفكرية، فوجه إلى النورسي سؤالاً في الموضوع، فأجاب عنه بجوابه الذي أثبتته في مجموعة المكتوبات من كليات رسائل التور<sup>(١)</sup> وصدر الإجابة بإيراد السؤال ونصه: «إنه يفهم من آيات القرآن الحكيم مثل قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢) أن الموت أيضاً مخلوق وأنه نعمة كالحياة، مع أن الموت في الظاهر انحلال وعدم وتفسخ وانطفاء الحياة وهادم الذات، فكيف يكون الموت مخلوقاً ونعمة؟»<sup>(٢)</sup>

وبهذا السؤال الذي لا أراه صادراً إلا عن فكر مشغول بتعرف وجه الحق من هذا الإشكال، وهو سؤال محدد ينصب على فكرتين محدّتين هما كون الموت نعمة وكونه أمراً وجودياً؛ وهما فكرتان يصعب تملكهما فضلاً عن تقريبهما للغير والدفاع عنهما بقوة إقناعية. فأما عن كون الموت نعمة، فإن ذلك يتجلى في نظر النورسي في مظاهر أربعة:<sup>(٣)</sup>

«أولها: الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المقلّة. وهو باب وصال في الوقت نفسه مع تسعة وتسعين من الأحبة الأعزاء في عالم البرزخ، فهو إذن نعمة عظيمة! ثانيها: إنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق

لقد شغلت الرغبة في تعرف حقيقة الموت أذهان العلماء والفلاسفة منذ القديم، فكانت لهم تصورات عديدة مستمدة من مذاهبهم ومواقفهم الفكرية؛ فكان منهم من تمثل الموت تمثلاً مادياً فلم يَر فيه أكثر من توقف للجسم عن أداء وظائفه الفسيولوجية لسبب طبيعي، أو لسبب مفاجئ يختم العمر. وكان منهم آخرون تمثلوه تمثلاً روحياً يتم فيه فك الارتباط بين الروح والجسد ليكون ذلك مرحلة ضرورية للخلوص إلى مرحلة جديدة تتجلى فيها الحياة تلياً آخر أرقى وأشرف.

لقد رأى بعضهم -ومنهم المعتزلة والطبيعون- أن الموت إنما هو انطفاء بذرة الحياة الذي يعقب توقف الجسد عن أداء وظائفه الفسيولوجية. والموت على هذا حالة عدم «يشهتها انسحاب الحياة من الجسد». ولكن على النقيض مما ذهب إليه المعتزلة والطبيعون، فإن أهل السنة قد كانوا لهم مذهباً مستقياً من إفادة القرآن وتنصيبه على كون الموت مخلوقاً، أي كونه شيئاً وجودياً. وتعريفات هذا الفريق تلتقي عند هذا المعطى، ومن تلك التعريفات قولهم: «الموت صفة وجودية خلقت ضد الحياة»<sup>(٤)</sup>، أو هو «صفة وجودية مُضادة للحياة»<sup>(٥)</sup>، أو «هو كيفية مخلوقة في الحي»<sup>(٦)</sup>، إلى غير ذلك من التعاريف التي تطغى بها كتب العقيدة، وهي تعاريف تشترك في اعتبار

المضطرب، ودخول في رعاية الخيوط الباقي وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسحة خالدة مستتيرة لا يزعجها خوف، ولا يكدرها حزن ولا هم.

**ثالثها:** إن الشيخوخة وأماليها من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبين مدى كون الموت نعمة تفوق نعمة الحياة. فلو تصورت أن أجدادك مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة قابعون أمامك حالياً مع والدك اللذين بلغا أرذل العمر، فهيمت مدى كون الحياة نعمة، والموت نعمة؛ بل يمكن إدراك مدى الرحمة في الموت ومدى الصعوبة في إدامة الحياة أيضاً بالتأمل في تلك الحشرات الجميلة العاشقة للأزهار اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس في الشتاء عليها.

**رابعها:** كما أن النوم راحة للإنسان ورحمة، ولاسيما للميتين والمرضى والجرحى، كذلك الموت -الذي هو أخو النوم- رحمة ونعمة عظمى للميتين بيلاً يا نعمة قد تدفعهم إلى الانتحار.

أما الشق الثاني من السؤال وهو المتعلق ببيان كون الموت أمراً وجودياً فقد قال عنه النورسي ما نصه: «إن الموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ إذ كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا هو بخلق وتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدير إلهي؛ لأن موت أبسط الأحياء -وهو النبات- يظهر لنا نظاماً دقيقاً وإبداعاً للخلق ما هو أعظم من الحياة نفسها وأنظم منها. فموت الأنهار والبدور والحبوب الذي يبدو ظاهراً تفسخاً وتحلاً هو في الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيميائية متسلسلة في غاية الانتظام، وامتزاج لمقادير العناصر في غاية الدقة والميزان، وتركيب وتشكل للمرات بعضها ببعض في غاية الحكمة والبصيرة، بحيث إن هذا الموت الذي لا يرى، وفيه هذا النظام الحكيم والدقة الرائعة، هو الذي يظهر بشكل حياة نامية للسنبل وللبنات الباسق المشر. وهذا يعني أن موت البذرة هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً، بل هو بمثابة عين حياته الجديدة؛ فهذا الموت إذن مخلوق منظم كالخاية.

وكذلك فإن ما يحدث في معدة الإنسان من موت لشرات حية أو غذاء حيواني، هو في حقيقته بداية ومنشأ لصعود ذلك الغناء في أجزاء الحياة الإنسانية الراقية. فذلك الموت إذن مخلوق أكثر انتظاماً من حياة تلك الأغذية.

فإن كان موت النبات -وهو في أدنى طبقات الحياة- مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالمت الموت الذي يصيب الإنسان وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا يشير حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب والتي تصبح بموته نباتاً رائعاً في الجمال والحكمة في عالم الهواء.

لقد استطاع النورسي من خلال هذا النص أن يغمض بفكره القواد وبألمعيته النادرة خلال بواطن الأشياء ليستخلص منها تصوراً منطقياً تستطيع العقول أن تدركه وتُجاوب معه، وقد اختار أن يشخص وجودية الموت انطلاقاً من مظاهر مادية لا يُخطئها النظر.

فالموت في نظر النورسي بداية رحلة جديدة من الحياة تأتي بعد أن يسلم المرء الروح ليبدأ مرحلة حياتية أشرف وأسمى من تلك الحياة المراتية المألوفة.

والموت بهذا هو قنطرة العبور وممر الخلوص إلى الحياة الأشرف، ومصير الإنسان في هذا أشبه ما يكون بمصير حبة القمح أو النواة التي تُودع الأرض وتغمر بالماء فيؤدي ذلك إلى تحولات كيميائية غير عشوائية تخضع لقانون صارم في التحول والتغير وهي مع ذلك تبدى للناظرين مجرد حبة عفنة متفسخة. لكنها سرعان ما تتبين عن فصيلة تحمل سنابل عديدة في كل سنبلة منها عشرات الحيات.

وهذا التجلي اليناع ليس في الحقيقة إلا حياة جديدة للجنة الواحدة الواحة الممتدة في أحشاء الأرض، ولولا ذلك التفسخ والاضمحلال لما وجدت الحية إلى هذه الحياة الأوفر طريقاً أو سبيلاً. وتفسخها الذي يرى اضمحلالاً وتحلاً إن هو في واقعه إلا إشراقة جديدة للحياة.

وإذا كان هذا الانتقال يتم بهذه الكيفية وبهذا الانضباط التام لقوانين كيميائية صارمة، فمعنى ذلك أن هناك حركة قوية منضبطة





وأما الناس اضمحللاً وهي عمليات متعددة يحكمها بسنة الله في الخلق؛ ونحن نقدر حب الفصح مشات الحيات - فإنها قد تعبر غداً الإنسان - فخطأ منه الدم والحلايا وتدعى في تركبة وباتة وتعتبر جزءاً من خلايا التفكير ومن الأعصاب فيه - فتشعق لأن الجباة جديداً في صور وأشرف بكثير من صورها الأولى - وما كان لهما أن يتكون كذلك لو لا ذلك اضمحلال الظاهري الذي يرى في عين الناس فاعاً وعندما وهو في واقعه وجود جديد ونحو الخبز من الأول.

إن عبادة استعادة الحياة ليست هي واقعها إلا عبادة مُقربة لاستعادة الإنسان حياته بعد أن يموت فينتقل إلى وجود ليس الوجود الأول طبقاً بالنسبة إليه . ومقارفة الحياة الدنيا أمر ضروري ليُستأنف حياة جديدة سالكة من كل منعت الحياة الأولى .

وبهذا الدستور الجديد الرابع اضطلع السوري أن يبلغ  
الغاية من تخيير كون الموت أمراً وجودياً ما دام هذا الموت  
عبارة عن تفاعلات متضخمة متسقة يُنتج عنها امتداد  
الإنسان لوجوده مرة أخرى. وهذه التفاعلات ليست  
ولا شئت إلا أمراً وجودياً غير عنة القرآن الكريم بقوله:  
﴿وَلَا يَخْلُقُ الْمَوْتَ﴾ (ملك: ٢٠).

إن تحليل النورسي ذو أهمية بالغة بالنسبة للمورسي  
العقيدة والمفكرين على حد سواء. وأهميته تكمن في  
ملاحظة عدة: منها أنه استطاع أن يقر بجهلاء ودون  
تأويلات بعيدة وجويدة الموت. وهذا أمر شاملاً عسير  
على كثر من تأولوا الموضوع.

وتكلم أهدبة الجاهل أيضاً في أنه استطاع أن يعطي صورة غير مُربّعة عن الموت. لأن الموت بهذا الإس فناء ولا اعظم من ذلك ولا اصحابة. وإنما هو مجرد قول وثقله إلى الأبد. والأشرف.

وخليل النورسي يظم إلى قول أبي العلاء المعري:  
خلق الناس للقاء ففلسنا أمه يحسبونهم للقاء  
إما يخلون من دار أعمان إلى دار مشقة أو رشاد  
والجد سكان الحرف من موت دائمة مرتباً بصوره  
عمداً وفناء. فليس ثم سكان الإنسان أسير ذاك الحرف.



الموت في نظر  
انورسي بداية رحلة  
جديدة من الحياة تأتي  
بعد أن يسلم المرء  
الروح فيبدأ مرحلة  
حياتية أشرف وأسمى  
من تمت الحياة الأرضية  
الذاتية.


$$p_1 = \frac{1}{2} \left( 1 + \frac{1}{\sqrt{2}} \right) \approx 0.7071$$

يراد حرباً على الوجود الإنساني وهذا لا يكون له.  
فكره ويحتاجه أسباب حتى ولو كانت جهاداً من  
أجل الحق ودفاعاً عن العقيدة ومواجهة الماثل.  
إن فلسفة الموت عند النورسي إعلان عن بقاء  
الإنسان واستمراره واتصال حياته الأخرى بالأولى.  
وهي رفض لفلسفة العدم والإلغاء والتشاؤم التي  
لما عليها الفلسفات المادية التي حضرت حياة الإنسان  
في البعد الأول من رحلته. وأوقفته أن الموت نهاية  
ودمار فأنزله لدمك.

إن تغلب النور على الجانب الذي ما سبقت مقدرته  
 على الإفادة على أكثر من مستوى؛ فهو مقدر على المستوى  
 العقدي. لأنه يتعبد على طائفة الموت التي هي عبدة  
 اليوم الآخر. وهو جزء من العبد الذي يؤمن به كل  
 مؤمن.

كما أن علي التورسي يقدم على استنساخ الفيديوهات بحسب إراء المثقفين والباحثين مع البرأت وثقة بالبحراني بعينها الأول والثاني؛ كما أنه يهون من شأن الموت فلا يجعله ذات الشئ عرعب الذي يقني الإنسان ويأمره. ومن هذا الإحساس لا يحسب الإنسان إلا شجاعة خاصة وأوجه التشاق والقيام الصعاب مادام الموت وهو أقصى ما يراود الإنسان ليس في حقيقته إلا رحلة نحو حياة تفر النفس بها وتطيش. لأن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون. ٢

(١٠) جامعة محمد السادس

اقتباسات:

- [illegible]

# تَوَقَّفْ هُنَيْهَةً...

## تأملات جرم صغير



د. مجدي سعيد \*

الاندفاع في مداراتنا وفي مساراتنا؟ هل نتوقف هنيهة لنسأل هذا السؤال أم أن قصور الاندفاع الذاتي في مداراتنا، وجاذبية الشمس في مجموعتنا ومجراتنا تمنعنا من ذلك فنظل في مداراتنا الشخصية أو الأسرية أو المجتمعية أو القومية ندور هكلنا بلا معنى أو هدف أو حتى توقف للسؤال عن هذا أو ذلك، ما المعنى... وما الهدف؟ هل أنا في تلك المدارات والمسارات في حالة من اليقظة أم في نوم، مغض العين... مسوق؟! لا أدري...

تذكرت وأنا في غمرة تلك الخواطر الحديث النبوي «الناس نيام.. فإذا ماتوا انتبهوا»... في غمرة ساهون... في غفلة... في حالة بين النوم واليقظة، ولكن... «كُلُّ وَجْهٍ هُوَ مُوَلَّيْهَا». فني كل تلك المدارات والمسارات سواء استيقظ الإنسان أم نام، غفل وسها أم استيقظ وتفتحت مسام جوارح عقله وانتبه... تظل حالة الدوران والسير... رحلة لا تتوقف حتى ينتهي الأجل. والكارثة ألا تحدث بقطعة البصيرة وتفتح مسام العقل وتوقف الهنيهة للسؤال قبل نقطة النهاية...

كل منا أدري بمساراته ومداراته... يحتاج إلى تأملها ومراجعتها، هل هي غائبة أم عبثية؟ وأي وجهة يوليها؟ هل يستيقظ الحيراء أم يستيقظ الأهواء والشهوات ويتقاتل على التفاهات والعاغات؟ وأين ومتى تنطفئ شعلة جرمه في نهاية جميع مداراتها ومساراتها؟!

أظن أن الأمر يحتاج إلى التوقف هنيهة وهنيهة للسؤال فهي رحلة لن تتكرر. فكل نقطة يمر بها جرم الإنسان - زمانا على الأقل - لن يمر بها ثانية... فهلاً توقفنا هنيهة؟

(\*) كاتب وباحث مصري.

ل. توقف هنيهة... هذا هو الهاتف الذي خطر على بالي وأنا أهدم بالعودة إلى النوم بعد تقلبات أيام شاققة شائتها مناقشات ومناوشات كلامية وخلوات صاخبات، وما هي في الحقيقة بخلوات.

توقف هنيهة... فبين نوم وبقطة هي في ذاتها أشبه بالنوم، بين هذه وتلك يظل الإنسان، ذلك الجرم الصغير في الفلك البشري مندفعاً مسرعاً بلا توقف... بلا هدف أو معنى أحياناً كثيرة... مندفعاً مسرعاً في دورانه حول نفسه. فكل منا بلا شك مهتماً اقرب من غيره أو اقرب منه غيره يظل جرمنا وحده... أشبه بصندوق مغلق على ذاته، يدور أولاً حول ذاته، بينما هو جزء من مجموعة شمسية... أسرة نووية، ثم مجرة... أسرة متشعبة، فمجرة أكبر... مجتمع أوسع، فمجرة أوسع... قوم... وهكذا.

ما أشبه الأجرام والأفلاك البشرية بالأجرام والأفلاك الكونية في دوران كل جرم حول ذاته... في فلك من أفكاره وهمومه ومشاغله واهتماماته. وكل مجموعة وكل مجرة حول نفسها، وكل جرم يدور حول شمس في مجموعته... أب أو أم أو أخ أو زوجة أو صديق. الكل يدور بسرعة في تلك المدارات... وفي مسارات تطول أو تقصر بين نقطة بداية... صرخة الميلاد، ونقطة النهاية... شهقة الموت.

فإذا كانت الأجرام السماوية قد فطرها الله وخلقها هكذا جمادات بلا عقل... لكنها تعرف ربها... خالقها، فما بال الجرم الإنساني... الذي هو أنا وأنت... ألا تتوقف هنيهة لنفتح عيوننا... لا ليست عيون أبصارنا بل عيون بصائرنا لنعرف... فقط وعلى أقل تقدير إلى أين المسير؟ إلى أين

مهدة إلى أولئك الفتيان الشجعان،  
الآتين من كل مكان،  
إلى أرض «داغستان»  
ليقيموا فيها معاهد العلم والعرفان،  
ويُعلّوا منارات الهدى والإيمان.



# هتاف الأرواح

أديب إبراهيم الدباغ \*

وأطعموها عقولكم لتعود تتأجج من جديد وتثير لهذا الشعب  
مصايح الهدى والإيمان.

جئتم إلى هنا مدفعين بقوة قدرية لا تقاوم، فأنتم مبعوثو  
القدر وسفراؤه إلى هذه البلاد؛ لقد اجتزتم بوابة آسيا الكبرى،  
وفتحتم الطريق لمواكب الإيمان من بعدكم، ولعل حدس  
أسناذكم التورسي يبهوض آسيا على صوت الإسلام من جديد  
يوشك أن يصدق. فأنتم هنا هذا الصوت العظيم الذي سيتردد  
صداه قريباً في عمق أعماق آسيا... فاهتفوا ولا تنوا عن الهتاف  
ورجّوا الأرض بهتافكم، وهزّوا الأبواب الموصدة في  
وجوهكم، فمن أدام الطرق فتح له ولو بعد حين.

لا تقولوا ما نحن؟ ومن نحن؟ وأنتي لأن نعيد لكلمة التوحيد  
وهجها فوق هذه الأرض؟ وأنتي لأن نعر أرضاً خراباً عملت فيها  
معاول الهدم والتخريب خمسة وسبعين عاماً؟ وكيف لنا أن نذر  
بذرة الإيمان في أرض قاحلة جرداء؟ وبماذا نشق الأرض ولا رفش  
ولا محراث؟ ونحن نقول لكم: إن عزّ المحراث فلتكن أظفاركم  
هي المحراث الذي به تحرقون، وإن عز الرفش فلتكن أسنانكم هي  
الرفش الذي به تحفرون؛ ولأن صوت الحياة القرآنية هي التي تكلم  
في دواخلكم، فسوف تصغي إليها حبات التراب وجلاميد  
الصخور، بل تصغي إليها الأرض والسماء، وكل الكائنات  
ستأتيكم طائعة منقادة. ها هي فرصكم - يا أبناءنا - كي تعلموا

لو أصغيتم بآذان أرواحكم في سجوّ الليالي وفي هدوات  
الأسحار، لسمعتهم هتاف أربعين صحابياً يرقدون فوق روابي  
هذه المدينة وهم ينادونكم قائلين:

انتظروناكم طويلاً. . . سألتنا عنكم الغادين والرائحين من  
ملائكة السماء: أين فتيان الإيمان، متى يقدم حملة القرآن؟  
الشوق إليكم أضنانا. . . والحنين للقيامكم عذبنا. . . وها أنتم اليوم  
هنا. . . فلأرواحنا أن تسعد، ولوحشتنا أن تأنس، ولغربتنا أن  
تأسى بكم في هذا القفر الموحش المجذب من صحاب الإيمان،  
والمجل من أشقاء الروح والوجدان.

لا نقول لكم أحرقوا كل شيء يفرحكم بالعودة من حيث أتيتم  
كما فعل طارق بن زياد من قبل، ولكننا نقول: أحرقوا وجودكم  
كله، وأشعلوا النار في أرواحكم، ثم اثروا حبات هذا الوجود  
المحترق فوق هذه الأرض، فلا تغادروها - إذا غادرتوها - إلا لتعودوا  
إليها، لأنها صارت جزءً من وجودكم وقطعة عزيزة من كيانكم.

تساءلوا من هذه النار التي آتستم وجودها في هذا المكان من  
بعد، والتي جذبتكم للمجيء إلى هنا. ونحن نقول لكم: إنها  
قيس من نور عظيم كنا قد حملناه في أفئدتنا إلى هذه الأرض،  
ولكنها اليوم ذبالة مرتعشة وجلة توشك على الانطفاء إلى الأبد.  
واننا لنناشدكم - يا أبناءنا البررة - ألا تدعوا هذه الذبالة تخفت  
وتنطفئ. انفخوا فيها من أرواحكم، ألقموها قلوبكم،

يا قلمي الوسنان...

ألم يئنْ أَوَّانُكَ،

أعلمُ أنك إذا تحركت

ذاب الجليد،

واخضرَّ المكان،

وأشرق الربيع،

وتفتحت أزاهير الفكر والروح.

البشرية كيف يمكن للإيمان والإخلاص أن يأتي بالمعجزات، وتعلّموا العالم أن وجودكم هنا هو الدليل الأقوى على عالمية الإسلام وعمومية القرآن. لا تستمعوا إلى أولئك المثبطين والمعوقين الثرائين، وهم يتخافتون متهماسين: أيّ خيال ضبابي يتشبّه به هؤلاء؟! وأي حلم وردي يُغرقون أنفسهم فيه؟! وأية آمال بعيدة المنال يركضون وراءها؟!

ونحن نقول لكم -يا أبناءنا- ليس الخيال هو ما نخافه عليكم، وإنما نخاف عليكم افتقاركم إلى الخيال. فما أكثر ما يبعث الخيال من الهمم، وحفز من الأذهان، ودلّ وأشار إلى خفايا من الحقائق ما زال العقل يدين بها إليه. وجودنا هنا، بل وجودكم أنتم كان حلماً من الأحلام، وهو اليوم حقيقة من الحقائق. وما هو خيال اليوم يكاد يكون حقيقة غدا، والأمة التي يعقم خيالها يعقم ذهنها ويتبدل وجدانها.

أحبّوا «داغستان» بكل حبة من قلوبكم، ولكنهمك بها فوق كل همّ، ومحبتها فوق كل محبة. فإذا أحببتموها سهّل عليكم ما تلقونه في سبيلها من متاعب ومشقات، وسهلت عليكم التضيّحات.

يقال إن الليل إذا تعشق وردة وأراد أن يغتنيها حبّه غرز شوكتها في صدره وشرع يغني لها أشجى ألقانه وأعذبها. وأنتم كذلك -يا أبناءنا الأعزاء- دعوا بلايل الإيمان في صدوركم تغني «داغستان» أعذب الألقان رغم ما يوخز صدوركم من أشواكها. فهي وردتكم ووردة آسيا الوسطى التي يهون كل شيء من أجل أن تسمع عنكم وتصغي لكم، وهي ماسة «القنفص» المتألّفة في تاج جمالها، لكنها تتأبّى عن يرومها إلا الخمين الذين يشفع لهم عندها لإخلاصهم في حبيها وهداياهم إليها، وهل من هدية هي أئمن من الإيمان الذي تقدمونه إليها وتُحبّونها به. ؟. ؟

«كاتب وأديب - العراق»





أ.د. فريد الأنصاري \*

### جمال الإنسان

ثم انظر إلى هذا الجمال المتدفق كالشلال، من الآيات التالية؛ يقول سبحانه بعد الآية السابقة بقليل، في سياق العنّ بهذه النعم الجميلة الجليلة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۖ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ١٠-١٢).

### بانوراما الأرض

إنها صورة كلية شمولية ذات ألوان وأنوار حية متحركة، إنها «بانوراما» كاملة للأرض بتضاريسها وبحارها وأشجارها وأنهارها وأحيائها جميعا. ثم بغضاؤها الرحب الفسيح بما يملأ ذلك كله من حركة الحياة، والنشاط الإنساني بكل صوره مما أتيج له في هذه الأرض وقضاها من المسخرات الحيوية. هذا كله هو قصركم الزاهي أيها الإنسان، ومجالك الواسع، محاطا بكل آيات التسخير وكرامات التدبير، المتدفقة بين يديك بكل ألوان النعم والجمال؛ لتستريف العمر كأعلى ما يكون الذوق، وتكامل ما تكون الحياة.

وفي سورة الأنعام صور تنبض بجمال الخصب والنعما، جمال أرضي لا يملك معه من له أدنى ذرة من ذوق سليم إلا أن يخضع لمقام الجمال الأعلى، الجمال الرباني العظيم. قال جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا

الإنسان جميل، بل هو أجمل مخلوق في الأرض، وتلك حقيقة قرآنية ووجودية؛ ذلك أن مصادر الدين في الإسلام تحدثنا أن الله قد خلق الإنسان في أجمل صورة وأحسنها، وقارن بينه وبين سائر الحيوانات -وهي غاية في الجمال- ظاهرا وباطنا. قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ (غافر: ٦٤) وصح عن النبي ﷺ قوله: «خلق الله آدم على صورته» (متفق عليه)، ثم جعل له الكون من كل حواله جميلا، وحسنه تحسينا، عساه يكون في تدينه حسنا جميلا. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَتَلَوْهُمْ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧) فالزينة الكونية مبعث وجداني للتجلي بالزينة الإيمانية.

إن الناظر في هذا العالم الكوني الفسيح، يدرك بسرعة أن الإنسان يعيش في فضاء قبي راق؛ بيئة واسعة بهية هي آية من الجمال الذي لا يبارى؛ بدءً بالأرض حتى أركان الفضاء، الممتدة بجمالها الزاخر في المجهول، تسير في ووق الغرابة الزاهي، إلى علم الله المحيط بكل شيء. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٦) وجعل الأرض الحية تنفّس بالجمال نغما لا تحصى ولا تنتهي ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢). وأرشد ذوق الإنسان إلى تبين معالم هذا الجمال في كل شيء: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءًا وَمَنَافِعَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۚ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٥-٦).



وَعَبَّرَ مُتَشَابِهًا نَظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ (الأنعام: ٩٩). ويلحق بها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ۚ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٧٠﴾﴾ (فاطر: ٢٧٠-٢٧٨).

فالصورة تتبدئ -في الآيات الأولى ثم التي بعدها- من لحظة نزول المطر، إلى لحظة خروج النبات والشجر من التربة الندية، إلى مرحلة خروج الحب المراكب في السنبائل، وخروج القيثون، (أي: العراجين والعُلوُق المقلعة بالفاكهة) بجمالها وبهائها، ثم ما يلامسها بعد ذلك من نضج وبيع، فزراها -وقد تهيأت للقطاف- متدللة خلال خمائل الجنت والبساتين، ناظرة إلى الناس في دلال خلاب. والآيات لا تغفل الحركة الحية للألوان، في تطورهما من الخضرة إلى سائر ألوان النضج والبيع، مما يتيح للخيل أن يتصوره -تَوَرَّدًا وَأَصْفَرَّارًا وَحُمْرَارًا وَاسْوَدَادًا... إلخ- في الزروع، والتمصور، والأعشاب، والزيتون، والرمان ونحوها، إلى ما يحيط ذلك كله، أو يتخلله، من ألوان الجبال وجُدُهَا، وهي: مسالكها أو خطوطها والتواءاتها المشككة منها، وهي غالبًا ما تكون ذات انحناءات مختلفة الألوان، كما قال تعالى يبيض وحمراً إلى ما يزيها من غريب سود، وهي الصخور الناصعة السوداء... إلى حركة اللون المنتشرة هنا وهناك في الحيوان والإنسان، مما لا يملك المؤمن معه إلا أن يكون من الساجدين لمن أفاض على الكون بهذا الجمال كله، الجمال الحي المتجدد. وإنها آيات تربي الذوق الإنساني على جمالية التوحيد والتفريد، مما تعجز الأفلام والألوان عن تجسيد صورته الحية النابضة، وأي ريشة في الأرض قادرة على رسم الحياة؟!

وإنني لو قصدت إلى استقصاء جماليات القرآن الكريم من السور والآيات لجنت به كله، فهذه عبارته الصريحة وإشارته اللطيفة كلها، كلها مشعة بتوجيهات ربانية لتربية الذوق الإنساني حتى يكون في مستوى تمثل مقاصد الدين البهية، بتدنية الجميل. فهل عبثاً نصّ القرآن على جمالية الكون والنعم والحياة؟ وهل عبثاً نبه القرآن الحسن البشري الإسلامي، ورباه لانتقاط دقائق الحسن والبهاء في مناظر القضاء والأرض والجبال والشجر والنبات والبحار والأنهار والألوان والأطيار؟!

إن الله تعالى خلق الحياة على مقاييس الجمال الإلهية الباهرة الساحرة، وأرسل الرسل بالجمال ليتدين الناس على ذلك الوزان وبذلك المقاييس. ولذلك قال النبي محمد ﷺ سيد الأتقياء، وإمام الأخيين: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال» (رواه مسلم). وفيه زيادة صحيحة: «ويحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها» (رواه الطبراني وابن عساکر)؛ مما يشير إلى أن الجمال مطلوب في أداء المسلم شكلاً ومضموناً، مبنًى ومعنى، رسماً ووجداناً.

### مواكب الجمال

فليكن الدين إذن سبيلًا إلى الله في مواكب الجمال ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۚ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣١-٣٩). وإنها للطاقة كريمة أن تجمع الحق سبحانه في مفهوم الدين، من خلال هذه الكلمات التوراتية بين جمالين: جمال الدين وجمال الدنيا: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ليكون ذلك كله هو صفة المسلم.

ولقد حرص الرسول ﷺ على تربية صحبائه الكرام على كل هذه المعاني. وكيف لا، وهو أول من انبهر بجمال ربه وجلاله؛ فأحببه حتى درجة الخلعة. قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه يوماً: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت ابن أبي قحافة زبياً بكرًا خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» (رواه مسلم)، وصح ذلك عنه ﷺ في سياق آخر: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» (رواه مسلم). وكان يعلمهم كيفية سلوك طريق الحبة بعبارات وإشارات شتى، ما تزال تفيض بالور إلى يومنا هذا، فأنظر إن شئت، إلى قوله ﷺ: «أنتم الرُّعَا الْمُحْتَاجُونَ يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم فليطه غرته وتحججه» (رواه مسلم) والغرة يبيض في ناصية الحصان، والتحجيل يبيض في يديه؛ فلك سيم الجمال في وجه الخمين وأطرافهم، يوم يرُدُّون على المصطفى ﷺ، وهي سيم «ليست لأحد من الأمم» (متفق عليه)، بها يعرفون في كثرة الخلاق يوم القيامة، كالدر المنثور في دجنة الفضاء. وهذه ومضة الإبراق النبوي تيشير برشح الأنوار على أطراف المشوشرين الساجدين، رشحاً لا يذبل وميضه أبداً!

النبى الكريم ميز جمال الخمين وسط الزحام واحداً واحداً.

قال ﷺ: «ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة! قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائق؟ قال: «أرأيت لو دخلت صُبْرًا [سجرا] فيها خيل دُهْمٌ، وبُهْمٌ، وفيها فرسٌ أغرٌ مُحْجَلٌ، أما كنت تعرف منها؟» قالوا: بلى. قال: «فإن أمتي يومئذ غرٌ من السجود، مُحْجَلُونَ من الوضوء» (رواه أحمد) فأى تدوين في هذا للدين؟ وأى ترقية لطيفة للشعور هذه وأي تشويق؟ ولم يفتأ النبي ﷺ يرقى الذوق على مستوى التصرف والسلوك، ليس في مجال المعاملات فحسب، ولكن أيضا في مجال الدعوة والإرشاد. وليس قوله ﷺ: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العف» (رواه البخاري) وقوله: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» (متفق عليه) وقوله أيضا في فرض الإحسان على المؤمن في كل تصرفاته وأعماله التعبدية والعادية: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» (رواه مسلم)، إلا نموذجًا لعشرات الأحاديث المنضوية تحت هذا المعنى الكلي الكبير: الإحسان في كل شيء؛ في الشعور والأخلاق والمعاملات والتصرفات والسلوك.

### أسس الجمالية في الإسلام

ومن هنا - بعد هذه الشواهد النموذجية والمقارنات التفرعية - يمكن أن نخلص إلى أن أسس «الجمالية» في الإسلام تقوم على أركان ثلاثة، هي: المنفعة والحكمة والعبادة. وابتعاها جميعا في وعي الإنسان ووجدانه يتكامل المفهوم الكلي للجمالية في الإسلام.

١. **الحكمة:** فأما الحكمة فمعناها - هنا - أنه ما من «جمال» إلا وله هدف وجودي، ووظيفة حيوية، يؤديها بذلك الاعتبار. ذلك أنه ما من جمال في هذا الكون إلا وهو رسالة ناطقة بمعنى معين، هو حكمة وجوده ومغزى جماليته. فليس جميلا لذاته فحسب بل هو جميل لغیره أيضا. فعند التأمل في كل تجليات الجمال في الطبيعة، نجد أنها تؤدي وظائف أخرى هي سر جماليتها؛ من مثل الأهداف التناسلية الضرورية لاستمرار الحياة في الكائنات من الإنسان والحيوان والطيور والنبات... إلخ. ففي هذا السياق تقع استعراضات الجمال الخارق مما وهبه الله للكائن الحي؛ لإنتاج الشعور بالجمالية مما ينتج عنه أروع التعابير اللغوية أو الرمزية، على جميع المستويات البشرية والحيوانية والطبيعية عموما، كل على درجة طبقته الفطرية من الوعي بالحياة والوجود الخلقى. وما ذلك كله في نهاية المطاف إلا ضربا من

قوانين التوازن في الحياة، واستقرار الموجودات والخلق، تماما كما هو دور قانون الجاذبية في استقرار الحياة الأرضية، وتوازن الأجرام والكواكب في الفضاء. فالإحساس الجمالي - بما فيه من عواطف جياشة لدى الإنسان مثلا - ما هو إلا وسيلة وجودية لاستمراره وتوازنه. قال تعالى: ﴿مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢٠-٢١).

ونفس الحقيقة الجمالية التي نراها في الطبيعة والجمال والبحار والنجوم... إلخ؛ ما هي - رغم التصريح القرآني بجمالياتها في مقاصد الخلق - إلا مخلوقات تؤدي وظائف في سياق التدبير الإلهي للكون؛ خلقا وتقديرا و رعاية. ومن ذلك قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبُ لِلنَّاسِ وَالْحُجَّةِ﴾ (البقرة: ١٨٩). وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَعَدَّ تَنَازُلَ لَيْلَعُمَا عَدَدَ السَّيِّئِ وَالْجَسَابِ﴾ (يونس: ٥) مشيرا بذلك إلى أن وظيفة الأقمار والأفلاك إنما هي إنتاج مفهوم الزمان؛ لتنظيم الحياة الكونية والإنسانية في أمور المعاش والمعاد معا، أي مجال العادات والعبادات على السواء. وكذلك ما ذكره الله من الوظيفة الجيولوجية والتسخرية للجمال والأنهار والمسالك، في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥-١٦).

فكل المشاهد الجميلة في الحياة والكون - كما عرضها القرآن الكريم - لا تخرج عن هذا القانون الكلي، من حكمة الوجود ووظيفة الخلق.

٢. **المنفعة والإمتاع:** وأما الركن الثاني للجمالية في الإسلام فهو المنفعة والإمتاع، سواء في ذلك ما هو على المستوى الحسي أو ما هو على المستوى النفسي والدوقي، أعني العاطفي والوجداني. ومعنى ذلك أن الله جل جلاله خلق في الإنسان مجموعة من الحاجات، كحاجته إلى الطعام والشراب واللباس؛ فكانت منها حاجة التمتع والاستمتاع بالجمال من حيث هو جمال. ومن هنا سعيه الدائم إلى البحث عنه والانجذاب إليه، وهذا صريح في كثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة. ومن ذلك أن تلك الحقائق الكونية نفسها، التي ذكرت في سياق هدفها الوجودي، وحكمتها الخلقية، هي عنها ذُكرت لها

أهداف إمتاعية في مسافات أخرى. قال تعالى مصرحاً بقوائد الأُنعام والبهاائم الإمتاعية (الجمالية)، إلى جانب منافعها التسخيرية: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (النحل: ٥-٨).

فقله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ثم قوله بعد: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، دال بوضوح - بما في السياق اللغوي من حروف التخصيص والتعليل - على قصد إشباع الحاجة الجمالية للإنسان، إلى جانب حاجته البيولوجية إلى الطعام والشراب، وسائر حاجاته المعيشية من الخدمات. وعلى هذا يجرى ما ذكر في القرآن من مشاهد الجمال والزين.

**٣. العبادة:** وأما الركن الثالث فهو العبادة. العبادة بما هي سلوك وجداني جميل، يمارسه الإنسان في حركته الروحية السائرة نحو رب العالمين، الله ذي الجلال والجمال. وهذا من الواضح بمكان حيث إن التصوص التي ذكرت قبل كافية في إثباته ويانه. ذلك أنه هو الركن الغائي من خلق الجمال نفسه، بل هو غاية الغايات من الخلق كله، وما به من حقائق الزينة والحسن المادية والمعنوية على السواء.

إن إشباع الحاجات الجمالية لدى الإنسان لو تأملتها تجددها لا تخرج عن معنى حاجة الإنسان الفطرية إلى التمدد والسلوك الروحي. ولذلك فإن الإنسان الغربي إنما يمارس بإبداعه الجمالي ضرباً من العبادة الخفية أو الظاهرة، التي يوجهها نحو الطبيعة حيناً، ونحو ذاته أحياناً أخرى. إنه بدل أن يسلك بإلتناجه الجمالي مسلك التبعيد لله الواحد الأحد، مصدر الجمال الحق، وغايته المطلقة في الوجود كله، ينحرف بها إلى إشباع شهواته أو أهوائه. ثم يمارس نوعاً من الوثنية المعنوية أو المادية. ولذلك كانت فنونه الجميلة تميل إلى التجسيم والتشكيل، محكومة بمثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ عَصَاهُمْ عِجْلًا جِسًّا لَّهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٨).

من هنا إذن أطر الإسلام الجمالية بمفهوم العبادة؛ حتى يصح

الاتجاه في مسيرة الإبداع، ويستبصر الفنان بتواضعه التعبدية مصدر الجمال الحق؛ فيكون إبداعه على ذلك الوزن، وتجرد مواجده لتلك الغاية، وتلك هي جمالية التوحيد، عسى أن يستقيم سير البشرية نحو نبع النور العظيم، النور الذي هو ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥).

والعبادة في الإسلام سلوك جمالي محض. وذلك بما تبعه في النفس من أنس وشعور بالاستمتاع. فالسير إلى الله عبر الترتيل والدُّعَاء والتدبر والتفكير والصلاة والصيام وسائر أنواع العبادات إنما هو سير إليه تعالى في ضوء جمال أسمائه الحسنی بما هو رحمن رحيم مَلِكٌ قُدُّوسٌ سَلَامٌ... إلخ. وليس عبثاً أن رسول الله ﷺ كان يصف الصلاة بما يجده فيها من معاني الراحة الروحية، ويقول لبلال رضي الله عنه: «يا بلال! أقم الصلاة!.. أرحنا بها!» (رواه أحمد وأبو داود) ومن العجيب حقاً أنه عليه الصلاة والسلام ذكر متع الدنيا وجماليتها فجعل منها الصلاة، مع العلم أن الصلاة عمل أخروي لا دنيوي، وذلك قوله الصريح الواضح: «حُبُّ إِلَهِي مِنَ الدُّنْيَا نِسَاءً وَالطَّيِّبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (رواه النسائي) وتوجيه الحديث دال بسياقه على أنه ﷺ أحب من الدنيا جماليات النساء والطيب وما يوحي به الأمران من جمال العواطف والمظاهر، ويقول في السياق نفسه: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» أي كمال سعادتي وجمال لذتي في صلاتي لله الواحد القهار؛ وذلك لما كان يجده ﷺ من أنس وراحة تامين على مستوى الوجدان الآني الدنيوي، بغض النظر عن المآلات الأخروية؛ لأن التعبير صريح في تصنيف الصلاة في هذا السياق ضمن محبوبات الدنيا. وقد أثر عن غير واحد من السلف والزهاد تعاقبهم بالدنيا لا من أجل ذاتها ولكن من أجل ما يجدون فيها من لذة العبادة، وجمالية السير إلى الله وهذا من أدق المعاني وألطف الإشارات الوجدانية.

فالجمالية الإسلامية إنما تكتمل بهذه الأركان الثلاثة جميعاً: الحكمة والمتعة والعبادة. وعليه؛ فإن السلوك الإسلامي انطلق متحلياً بجماليته إلى جميع مناحي الحياة الفنية والإبداعية والثقافية والعمرانية والأخلاقية والاجتماعية. فكانت له في كل ذلك تجليات خاصة تتميز بخصوص المفهوم الإسلامي للجمال. ٤

« جامعة السلطان المولى إسماعيل - المغرب »

# الألوان والانسان

مليج مرد \*

فضلا عن آثارها في حياة الفن، الموسيقى، التجارة والانفعالات النفسية والعاطفية.

على سبيل المثال تعتبر الألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر والبنّي ألوانا ساخنة، بينما تعدّ الألوان الأزرق والأخضر والرمادي ألوانا باردة.

من هنا قبل إن الألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر تثير البهجة والشهية وتدفع الإنسان نحو العدوانية، بينما تدعو الألوان الأزرق والأخضر إلى الحس بالأمان والهدوء والسلام. أما الألوان البنّي والرمادي والأسود فهي تثير الحزن والإحباط والقنوط. وبالرغم من هذا فيمكننا القول بأن هذه المفاهيم ما زالت فردية وتختلف من فرد لآخر.

فالسن والحالة المزاجية والصحة النفسية إضافة إلى عوامل أخرى تؤثر على إدراكنا للألوان. فالأشخاص الذين يشتركون في صفات فردية مميزة غالبا ما يشتركون في إدراكهم للألوان وتفضيلهم لبعضها على بعض. ولنضرب مثلا على هذا بالأشخاص المصابين بانفصام الشخصية (الشيذوفرنيا)؛ حيث يقال إن لديهم إدراكا غير طبيعي للألوان، وكذلك يفضل الأطفال في مرحلة تعلم التمييز بين الألوان اللونين الأحمر أو البرتقالي.

ويؤكد الأطباء النفسيون أن تحليل استخدام المرء للألوان وتجاوبه معها يكشف لنا معلومات نفسية وثيقة الصلة بالتحليل النفسي؛ بل يذهب البعض منهم إلى أن بعض الألوان لها آثار علاجية لبعض الإعاقات النفسية والجسدية.

ففي الصين والهند واليابان تستخدم الألوان في الطب البديل، فيعتبر اللون البرتقالي مقيدا في حالات الاكتئاب،

يكشف لنا النور حين يلامس أي شيء عن عالم من الألوان. حينئذ يكتسب أثاثنا الخالي من الحياة معنى جديدا وتسري روح الحياة في الأرفف البنية، والمنضدة الرمادية، والأكواب الخضراء، والبسط والمفارش والستائر؛ حتى حقول القمح التي تكتسي باللون الأصفر وقت الحصاد والجرار الفخارية الزرقاء؛ والملابس التي تستر أجسادنا، والأشجار الخضراء الزاهية التي تحيط بها البنايات وتظلّلها السماء الزرقاء... كل هذا يصبح أكثر بهاء وحيوية حين تزيه الألوان.

فلنقل إذن عبر عالم الألوان الرائع؛ فخلف كل لون قصة، بعضها جميل تستعين العيون الباصرة الحقيقة فيها، بينما ترى عيون أخرى فيها روح الشقاء والبغضاء وكل آفات النفس البشرية. لأجل هذا نستطيع القول إن الألوان تحمل المشاعر المتناقضة، فهي تحمل مشاعر الأمل والياس، وترمز لمفاهيم الإثم كما ترمز لمفاهيم البراءة، ولنا يساء استخدامها حيناً ويُضحي بها حيناً آخر، يُفضل بعضها ويذرى البعض الآخر.

فاللون يُعرّف بأنه ظاهرة من النور أو الإدراك البصري يمكن المرء من التمييز بين الأشياء التي لولا هذا اللون لكانت متطابقة. ولكونها إحدى الخصائص التي تمكننا من تمييز الأشياء، تعدّ الألوان معنى من معاني الحياة. وعليه، فإن قلنا إن الحقيقة تتداخل مع الحياة كان لنا أن نقول إنها سأي الحقيقة تُرى من خلال الألوان المختلفة.

## أثر الألوان على الإنسان

ربما يكون ذلك التجاوب النفسي والمبهج الذي تثيره الألوان هو أهم أثر لها في الحياة اليومية وهو ما يعرف بالإدراك النفسي،



والأصفر لمرضى السكر، والأخضر للمصابين بالقرحة والخمول الرحي، والأزرق البنفسجي لمرضى النصرع.

ما يهمننا هنا هو العضو الجسدي الذي يستقبل اللون مثل العين ومراكز الإحساس في البشرة.

فطول الموجة الخاصة بكل لون يحمل وينقل الطاقة إلى العضو الجسدي الذي يحوي ذلك اللون، وتقوم تلك الطاقة بإزالة الاضطرابات الجسدية والنفسية.

فالأشعة الملونة تؤثر مباشرة على الجهاز العصبي، لذا تتم معالجة العلل المختلفة بأشعة متنوعة الألوان لتنوع تأثيرها ولتعدد درجاتها.

وعلى الرغم من أن هذه الفوائد الطبية مازالت قيد البحث فإن الألوان تحدث رد فعل جسدي ونفسي محدد وواضح؛ فالعُرف والأشياء ذات اللون الأبيض وتلك التي لها ظلال خفيفة لألوان «مبهجة» ربما تبدو أوسع من تلك التي طليت بألوان داكنة أو «دافئة». وكما يعلم المصممون ومهندسو الديكور فإن الألوان الداكنة لها أثر تقليصي؛ فالخجعة المبهجة التي تطلّى باللون السماوي تحتاج إلى تثبيت منظم أضواء، أعلى من الخجعة المظلمة بلون برتقالي باهت حتى يمكن الحصول فيها على نفس درجة الإحساس بالدفء.

ويعاني الأفراد الذين يتعرضون لألوان غير عادية منبهة من مصادر خاصة من صداع واضطرابات عصبية؛ بل إن الأطعمة التي يتم تقديمها في هذا الجو ربما تصيب الإنسان بالقلق والمرض.

وعلى النقيض نجد ألواناً أخرى تدعو إلى المبهجة؛ فحينما يتعرض المرء للون مبهج بعد تعرضه للون آخر داكن يزداد لديه الشعور بالسعادة بدرجة أعلى مما لو كان قد تعرض مباشرة للون مبهج فقط، ويعرف هذا الأمر بتطوير التباين المؤثر.

### كيف يرى الناس الألوان

بعض اللغات لا تحوي كلمات منفصلة تعبر عن الألوان الأخضر والأزرق والأصفر والبرتقالي؛ بينما يستخدم الإسكيمو ١٧ كلمة لوصف اللون الأبيض الذي يصفون من خلاله درجات الثلج المتنوعة. وتُظهر لنا مقارنة مصطلحات الألوان وجود نماذج خاصة؛ فكل اللغات تحوي أسماء محددة للونين الأبيض والأسود؛ وإذا قمنا بتمييز لون ثالث سنجد أنه الأحمر يتلوه الأصفر أو الأخضر ثم تليها بقية الألوان.

والألوان هبات ومنح ولا يجب أن تكون سبباً للتشردم. يوضح لنا عالم الاجتماع أوريخان كول أوغلو أن أتباع المذاهب والسياسات المختلفة يختارون ألواناً مختلفة؛ ففي البلقان مثلاً يعتبر اللونان الأبيض والأزرق ألواناً يونانية حيث يحوي العلم اليوناني اللونين الأبيض والأزرق. أما اللونان الأحمر والأسود فغالباً ما يرتبطان بالصراع السياسي والاجتماعي؛ فقد ظل الأحمر لعدة سنوات رمزاً للعنف والقتل والظلم والإرهاب ومعاداة الديمقراطية. ويتعبّر آخر يعني الأحمر وجهاً مملوياً بالغضب (أحمر الوجه) أو دموي (عينان دمويتان).

أما في مجال السياسة فيشير اللون الأحمر إلى الإثارة أو الدفع نحو تغيير اجتماعي سياسي جذري مصحوباً بالقوة كما هو الحال في الثورة الحمراء وأي شيء آخر يتصل بالشبوعية مثل المربع الأحمر الخاص بالاتحاد السوفيتي السابق. بل يوجد في العالم جيشان أحمران؛ الجيش السوفيتي الذي أسس عقب ثورة ١٩١٧، والجيش الأحمر الياباني الذي أسس عام ١٩٦٩، وعرف وأولهما بقوانينه ونظمه الصارمة مثل معاقبة بعض الكتائب بإرسالها في موجات انتحار جماعية، غير أن مجموعة من القوانين الجديدة سنت عام ١٩٦٠ خففت من حمرة الجيش السوفيتي؛ أما الثاني فهو عبارة عن منظمة إرهابية يابانية صغيرة بقيت ناشطة حتى ١٩٩٠.

أما الألوان الحمراء الإيطالية وهي منظمة إرهابية يسارية متطرفة فقد اختارت اللون الأحمر والعنف، في سعيها لنهضة إيطاليا في السبعينيات لثورة ماركسية؛ كما اختار الثوريون الصينيون الذين سعوا لإنهاء الثقافة التقليدية الصينية اللون الأحمر والعنف؛ وتابعهم الثوار الكمبوديون الذين يعرفون باسم «الخمر الأحمر» والذين قاموا بقتل جيل بأكمله أو ما يقارب المليون ونصف المليون نسمة من السكان البالغ عددهم ٥.٧ مليون نسمة في فترة حكم امتدت لثلاث سنوات ونصف فقط.

أما اللون الأسود فهو يستخدم للإشارة إلى الأمور الثقيلة والخطيرة (مكبدة سوداء)، أو المسخفة والمؤنة (أيدي سوداء)، أو المكر والخبث والشر (أفعال سوداء)، أو الأشياء ذات الأثر السلبي (علامة سوداء في سجل المرء)، أو الأمور الغريبة أو الشيطانية (سحر أسود)، أو الأحداث والمشاعر الحزينة واليأس والمصائب (اليأس الأسود)، أو الجوائح (السبت الأسود)، أو العداوة والغضب والتجهّم (الحقد الأسود)، أو الأمور المشوهة



والسخرية الشادة (الفكاهة السوداء)، أو عمليات الاستخبارات السرية (المهام الحكومية السوداء).

يقول طبيب علم النفس الاجتماعي «إبراهيم بالي أغلو»: «على الرغم من أننا نربط الأسود بمعان سلبية فلا يمكن أن ننكر أنه يمثل الجدية والاحترام والبل. فهناك مواطن لا يعد فيها اللون الأبيض الذي هو لون الظهر لونا مناسباً. ولابد أن تستخدم الألوان مع درجاتها وتجميعاتها المناسبة.»

ويرى الطبيب نفسه أن من المنطقي ربط الأبيض بالمفاهيم الإيجابية والأسود بالمفاهيم السلبية: «الأبيض والأسود كالليل والنهار، بينما يثير سواد الليل الذعر في القلوب يشيع ضوء النهار فيها الطمأنينة والسكينة، كما أن عتمة الليل تخفي الألوان بينما يظهر النهار يريقها. والناس بطبيعتهم يميلون لحب الضوء وألوانه الساطعة، كما أننا نستخدم الضوء الأبيض في علاج الاكتئاب.

واهتمام المرء بالألوان

الداكنة يعطينا

مفتاحاً لمراج

هذا

الشخص،

بينما ارتداء

المريض للملابس البيضاء

يعطينا انطباعاً أنه اتخذ في

التحسين.»

وفي مجال الموسيقى يرتبط الأبيض بجودة النغمة الموسيقية المتميزة بنقاوتها وخلوها من التردد والاهتزاز.

أما اللون الأخضر فيحوي معنى الرحمة والطف والاعتدال (شتاء أخضر-معتدل)، ومعنى الجاذبية والبهجة، ومعنى الشباب والخيرية وعدم النضج أو الاكتمال (قناح أخضر)، وكذلك معنى الجدة. وفي المقابل قد يعني شيئاً له مظهر باهت ومريض أو شخص حسود (الخضّر من الحسد)، كما يشير هذا اللون إلى الحركات السياسية المناصرة للبيئة (السلام الأخضر)، أو الأفراد الذين يعملون من أجل الحفاظ على البيئة (حزب الخضّر).

أما الأصفر فهو يرتبط بمواد الفلزات الثمينة والأخبار المزيفة (الصحافة الصفراء)، كما يشير إلى الجبن (شيء من الجبن في شخصية الرجل).

أما اللون الزهري فيعني أن الشخص

راديكالي معتدل يحمل رؤى

اشرابية سياسية

كـ

اقتصادية،

كما يعني أيضاً

الإثارة العاطفية

(زهري مبهج).

### هل للألوان ألوانها الخاصة؟

المناسبة بين الألوان وتفضيل بعضها على بعض وما تحتله بعض الألوان من معان، فضلاً عن الجوانب النفسية للألوان، كلها أمور خاصة بكل أمة وتختلف باختلاف الزمان والمكان. فالأمريكان واليابانيون مثلاً يحملون نفس المفهوم حول الألوان الساخنة والألوان الباردة. وعلى الرغم من هذا يرى اليابانيون أن الأزرق والأخضر ألوان طيبة والبرتقالي والأحمر الأرجواني ألوان سيئة، في الوقت الذي يرى فيه الأمريكيان الألوان الأخضر والأصفر والأحمر ألواناً طيبة ويضعون البرتقالي والأحمر الأرجواني في مصاف الألوان السيئة. وبينما يمثل اللون الأسود لون الحزن في الغرب يستبدل به الأبيض أو الأرجواني أو الذهبي في بعض الثقافات الأخرى.

ويذهب «أورخان كورال» إلى أن المجتمعات تميل لاستخدام

ويسجل لنا التاريخ أن جماعات مثل «جماعة البد السوداء» و «جماعة الأوجه السوداء» و «جماعة الستر السوداء» دأبت على العنف والتخريب. وتعد جماعة الستر السوداء التابعة للزعيم الفاشي موسوليني أهمها على الإطلاق. فبعد طرد هذه الجماعة على إثر انقلاب عام ١٩٤٣ تحبب الناس ارتداء القمصان السود.

أما اللون الأبيض فهو يعني الخلو من الألوان، كما يعني الضوء أو الشحوب (شعر أبيض، شفاة بيضاء، أي من الخوف)، كما يعني الخلو الانحراف الأخلاقي، ويحمل معنى بريء أو عفيف (زواج أبيض)، ومعنى غير ضار (كذب أبيض وسحر أبيض)، كما يشير إلى الأشياء السعيدة أو الأثرية لدى المرء (أيام الحياة البيضاء)، ويعني أيضاً المحافظ سياسياً أو الشعب التقليدي الذي يقوم بإجراءات ثورية مضادة (إرهاب أبيض).

الألوان التي تنسج مع معتقداتها وثقافتها. ففي جزر باغي الإندونيسية يعتقد المواطنون أن أسلافهم وصلوا إلى المكان في زوارق بيّنة اللون. ولذا فهم يبنون بيوتهم على هيئة زوارق طليت باللون البني، بل يذهبون إلى حد التضحية بحيوان عجل البحر لتعليق رأسه على المنازل كي يزيدوا في زخرفتها، ويرتدون اللون الأحمر في أثناء الجنائز حيث يشيع هذا اللون في ثقافتهم وتمتلىء الشوارع بالمشيعين الذين يتشبهون باللون الأحمر.

أما في منغوليا فيشيع اللون الأخضر حيث يحب السكان الطبيعة والحيوانات، وفي جواتمالا أجبر المحتل الأسباني كل قبيلة من السكان الأصليين على ارتداء لون معين كي يستطيع تمييزهم. وكان الناس أحبوا هذا الأمر وقلوبه، فما زال الأمر ساريا حتى اليوم. أما مدينة فارانسي الهندية ونهر الجانغ فهما يذكران المرة باللون البرتقالي بينما يذكر ك تاج محل باللون الأبيض.

وتقول «نوال سويندي» التي عاشت في إيران لفترة: «إن الإيرانيين يرون أن اللون الأسود لون شريف»، وترى «نوال» أن الإيرانيين والغربيين كذلك يرون اللون الأسود رمزا للحداد؛ ويتشجع الإيرانيون باللون الأسود لندكر أئمتهم، بينما يرتدي الغربيون السواد في جنازتهم لندكر قدسيهم.

وتستطرد سويندي:

«يبدو أن الإيرانيين يرتدون ثياب الحداد على الدوام فكربلاء تعيش داخلهم. أما الأتراك فلا يعدون اللون الأسود لونا حزينا. لذا فهم يرتدون ثيابا عادية أثناء حضور الجنائز لأنهم ينظرون إلى الموت كجزء لا يتجزأ من الحياة.

أما اللون الأحمر فهو عند الإيرانيين لون العار، وأما في تركيا والصين والهند فيعد الأحمر لون الزفاف حيث ترتدي العروس حمرا أحمر على رأسها عشية زفافها وتحيط خصرها بحزام أحمر اللون يوم الزفاف؛ كما تضع المرأة ساعة الولادة أيضا شريطا أحمر اللون كإشارة إلى أنها على عتبة مستقبل جديد مليء بالثراء والغنى. أما الأفارقة والآسيويون فهم يحبون ارتداء الألوان المتعددة، وأرى أن هذا يرجع إلى طبيعة البلاد التي يقطنونها حيث الطبيعة والجو المشمس الساطع الذي يؤثر على أريديتهم وأمزجتهم.

أما اللون البنفسجي فهو لون الإمبراطورية البيزنطية حيث كان الإمبراطور وحده هو من يرتدي هذا اللون، وحتى بعد موت الإمبراطور بنيت مقبرته من حجارة بنفسجية اللون. وأظهرت حفريات تيومولوس بمدينة «تكيرداغ» في تركيا أن الإسكندر الأكبر كان يرتدي غالبا اللون القرمزي. وربما يكون هذا هو السبب وراء تفضيل أباطرة الدولة البيزنطية هذا اللون بدرجاته المختلفة.

### هل للأديان ألوان

يجاب عن هذا السؤال بـ«نعم» و«لا» في الوقت نفسه، فالمسلمون مثلا يفضلون اللون الأخضر حيث تغطي قبورهم وأضرحتهم بأردية خضراء، كما يشيع اللون ذاته في مساجدهم. ومن المعلوم أنه ليس للإسلام لون خاص؛ وربما يربط بعض الناس بين الإسلام واللون الأخضر حيث كان النبي ﷺ يحب اللون الأخضر، فهو يريح العين ويرتبط بالطبيعة. لكن الحقيقة هي أن النبي ﷺ أمر الناس أن يرتدوا ما صفا لونه وخلا من الدنس وأراح العين.

ونرى القساوسة الأرثوذكس الشرقيين يتشبهون بالسواد ويضعون غطاء رأس أسود اللون، بيد أن هذا الأمر ربما ليس له أي مغزى ديني، إلا لأن رجال الدين والراهبات الكاثوليكين ربما يفضلون اللون الأسود لسيطته ووقاره.

وبعض الرهبان البروتستانت (مثل اللوثرين-أنتياغ مارتين لوثر) يرتدون اللون الأبيض أو الرمادي ربما كرد فعل ضد الكنيسة الكاثوليكية؛ كما ترتدي بعض الجماعات اليهودية المشددة المعاطف السوداء الطويلة والقبعات السوداء عادة في أثناء المناسبات الدينية أو الأحداث الهامة ليدلوا على أهمية الحدث.

تستخدم الألوان في أغراض شتى تتنوع ما بين الطب والفن والسياسة والأنثروبولوجيا. والألوان جزء لا يتجزأ من الحياة، ولا يهتما كيف تستخدم الألوان، فأفضل استخدام لها نستطيع أن نراه في صنع الخالق العظيم سبحانه. ٤

«كتاب وباحت تركي. الترجمة عن الأكليري بهاء الدين إبراهيم نعمة الله.



(٢)

## حرام

وجه أروى

أرى البوسفور يُطلع وجه أروى  
فقلت: بُيتي.. هيا الحقي بي  
لقد ترك المدينة مطمئناً  
تكتفه الهدى من كل صوب  
وما رغب المجاهد عن حماءه  
ولكن نور ربي وهو أبقى  
وقامت بنت ملحنٍ تنادي  
أناساً يركبون البحر خضراً  
ملاحم لم يشبهها ثوب زور  
تحققت البشارة يا حبيبي  
فكيف يقيد الطين انطلاقي؟  
إذا ما راية رفعت لمجدٍ  
بغات الطير تأمن في حماءه  
وأسس ملك عدل لا يبارى

يقول: أطلت يا أبتى الغيايا  
هنا الإسلام قد ضرب القيايا  
أبو أيوب وامتنق الصعابا  
فردّد كلّ محروم: أصابا  
ولم يكسبه ترك «الدار» عابا  
غدا يحدو بهمة الركابا  
وتخلّت الأساور والحضابا  
ملوك أسرة ملوك الرقابا  
وكم للحق ثوب الزور شابا  
فهذا البحر وطناً لي الجنابا  
ويرجو النجم من وطن الترابا  
غدت يمين أورخان العقابا  
ويسورث كلّ جبار عقابا  
وأعلاه اقتدارا لا انتهابا

أ.د. حسن الأمrani \*

ألا يا أيها العلم المهدى  
ترى الفتح المظفر خير كاسٍ  
خرجت وريح جعفر خير حاد  
وسقت الخيل تطأ المعالي  
فقل يا حالماً بلواء حمد  
أنا الإيمان مثل الشمس يجري  
ويغدو الكوخ قصراً مشمخراً  
وأرسل طائري نحو المعالي  
وإن البلب الموفور عشقاً  
ويمنح لحنه للفجر يرجو  
تأمل: «أن تكون» وليس «تبدو»  
تضيق بي البلاد وباصطخاي  
«ألسْتُ بربِّكم» لي خير زاد  
أدركها يا نديم فما سواها  
ورُشَّ بها غداً قبري إذا ما

#### عندليب الكون

تلكَ عندليبُ الكونِ قلبي  
أليس معلّمُ الأكوان ألقْتُ  
ومن غير المعلّم يرتجي من  
فأُسكنُ مهجتي مُدناً رحاباً  
إليه الأمرُ لله احتساباً؟  
يسوق لساحه التجبُ العرابا

وعلمني غنبةً والنصافي  
على دين الحبيب يكون موتي  
لقد شُرفَ الرقيم بساكيه  
أحلّ العشقُ منزلةً هواه  
فكيف وفي «حراء» قد تجلّى؟  
أنا قطمير من قدمي حبيبي  
ولو أني وقفت العمر مدحا  
لقد غرضتُ فقال: إليك عني  
وقد كشف الغطاء له عيانا  
فما ازداد الفؤاد به يقينا  
يهيج لي البكاء الذكّر حتى  
تضعض مركي المسكين وجدا  
وقال العاشقُ المجنونُ قولاً  
«محمد ارتقى فأنتي محلاً»  
ألا قسماً لَوُ أني يا إلهي  
صعدت إلى الجبال فطاش عقلي  
وكيف وقد دنا حتى تدلي

وبصرني بها العجب العجابا  
وما الصبّ الخزين كمن تصابي  
وأعلى ذكرُ قطمير الكلابا  
رجاها بعضُ من لبس الثيابا  
وكيف ومن «حراء» همتُ شهاباً؟  
أقبل عند حضرته الترابا  
لما أفرغت من مدحي الوطابا  
ولا ألوّك بعداً واجتنابا  
وشاهد عالم الغيب اصطحابا  
إذ ازدان الكمال به اختصابا  
جميل الصبر في الأحشاء غابا  
فموج البحر يوسعني عتابا  
وعاء الكون فانشعب انشعابا:  
غدا للسدره الغراء بابا  
أتبعه ما رضيت به إيابا  
فكيف وأحمدُ اخترق الحجابا؟  
فصار من الحبيب الفرد قاباً؟

«رئيس تحرير مجلة المشكاة - المغرب»

إستانبول: ٣١ يوليو ٢٠٠٥ / ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٦





# قوافل الحج في العصر العثماني

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري\*

عند فتحه على الحرمين الشريفين . ولم يكن الاهتمام وقفا على الأماكن ، بل تنعّاها إلى المواطن ، فقد أعفي سكان الحجاز من التجنيد ، وأبقت الدولة على الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة؛ وكل ما كانت تفعله أن ترسل فرمانا تحدد فيه إمكانيات واختصاصات وواجبات الشريف الجديد عند تعيينه ، وتوصيته ببعض الوصايا التي كانت تنصب في أغلبها على حماية الحجاج في أموالهم وأرواحهم ، وأن يقسم بالعدل الصرة الهمايونية بين الأهالي ، وكذلك المؤن القادمة من مصر ، وأن يسعى لبسط الأمن على الطرق . وكان أمير مكة المكرمة يتمتع -في التشريفات- بأسمى مقام في صف المصادر الأعظم في الأستانة والخيوي في مصر وترتب له العطايا من قبل السلطان .

ولكن الشيء الذي أولته الدولة العثمانية جل اهتمامها ، هو قوافل الحج والإشراف المباشر والفعلي على الحج ، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها ، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام ، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه ، فأنشأت قوافل الحج ، واهتمت بالطرق؛ فأقامت الحصون ، وحفرت الآبار على طول طرق الحج ، وشجعت على إقامة الخانات ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التي

لقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التي اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية؛ فقد كان للهيئة الإسلامية وضع معترف به ، وكان يطلق على رئيسها لقب المفتي أو مفتي إستانبول ، ثم تغير هذا اللقب إلى «شيخ الإسلام» الذي كان يشرف على الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع والنشاط الديني . وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته ، فقد كان شيخ الإسلام يصدر فتوى تميز الحرب ، دفاعا ، أو هجوما ، وعقد الصلح ، وغير ذلك من الأحداث الجسام .

وقد كان من مظاهر اهتمام الدولة العثمانية بالدين والعالم الإسلامي اهتمامها بتنصيب نقيب الأشراف .

## الحجاز في العهد العثماني

كما كان الاهتمام الكبير بالحجاز من السمات التي حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين؛ فقد كان الحجاز وما يحويه من أماكن إسلامية مقدسة تابعا للدولة العثمانية ، مما أضفى عليه مركزا دينيا مرموقا في جميع أرجاء العالم الإسلامي . وقد أعفت الدولة العثمانية منطقة الحجاز من أداء الضرائب ، بل أقر لها سليم الأول ثلث ما كان يجبي من مصر . كما أوقف خراج اليونان



كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة في مواعيد محددة كل عام ، وتضع لها قوة تحرسها ، يقودها أحد كبار العسكريين ، الذي كان يسمى «سردار الحج» . وكان على رأس كل قافلة أمير للحج ، وكثيرا ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المرافق للقافلة ، وخاصة قافلة الحج الشامي .

### أهم قوافل الحج

وكانت أهم قوافل الحج في العهد العثماني:

أ. **قافلة الحج الشامي:** وتضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان ، وحجاج إستانبول نفسها ، وكان عددها يتراوح ما بين ثلاثين وخمسين ألفا .

وقد كان السلطان العثماني يشرف بنفسه على ترتيب وإعداد هذه القافلة وخروجها من مدينة إستانبول . وكانت القافلة تقطع الطريق التجاري حتى تصل إلى دمشق ، ومنها إلى أراضي المومباين القدماء ، ومن بلاد معن عبر صحراء مزرب إلى مدائن صالح حتى تصل القافلة إلى المدينة المنورة .

وكان السلطان العثماني يصدر أوامره إلى الولاة لتسهيل مهمة مرور القافلة ، وأن يتولوا مهام حراستها حتى تصل إلى حدود الولاية المجاورة ، فيتولى الوالي الجديد استقبالها وتأمين مسيرتها عبر ولايته ، حتى تصل سالمة إلى نهاية ولايته وهكذا . وقد كانت القافلة وعلى رأسها أمير الحج تعبر هذه الولايات وسط حفاوة واهتمام بالغ ، ويتسلم أمير الحج بصل شرعي أموال الأوقاف والهدايا المرسلة إلى أهالي الحرمين الشريفين ، وإلى الحرمين الشريفين ذاتهما ، من بسط وتحف ومصابيح وشمعدانات ومواد غذائية وما شابه ذلك .

ب. **قافلة الحج المصري:** وتضم حجاج مصر وشمال أفريقيا ، وكانت من أهم القوافل خلال العصر العثماني ، حيث كانت تضم الحمل المصري وكسوة الكعبة المشرفة الجديدة . وكانت تتحرك من القاهرة خلال الأسبوع الأخير من شوال من كل عام ، وسط احتفالات عظيمة تتم تحت إشراف الوالي نفسه . وتقطع المسافة في ٣٧ يوما ، سالكة طريق السويس وسيناء والعقبة ثم تلحق في بعض الطرق مع قوافل الحج الشامي ، وفي بعض السنوات كانت تستقل السفن من السويس إلى جدة ، أو من الموانئ المصرية الأخرى المواجهة لجدة .

ج. **قافلة الحج العراقي:** وتضم حجاج العراق وفارس ، وتسلق

الطريق الذي يعبر جزيرة العرب نفسها . وكان كثير من حجاج فارس والخليج العربي واليمن يفضلون طريق البحر والسفن البحرية .

د. **قافلة الحج اليمني:** وتضم حجاج اليمن والهند وماليزيا وأندونيسيا ، وينضم إليهم حجاج الحبشة والصومال والأفارقة الذين يصلون إلى مصوع وسواكن وموانيء اليمن .

كانت القوافل تضم عناصر مختلفة؛ ففيها الأمراء ، والأثرياء ، والتجار ومعهم تجاراتهم ، والفقراء والمعدومون . وكان كل حسب قدرته يرافق القافلة ، ففيها اليهودج وفيها الجمال والحيل ، وفيها الرجال من البدو والفقراء .

وقد كان الولاة يقومون باستئجار الجمال والحيل لحمل مهمات القافلة ، ويتعاقدون على ذلك قبل موسم الحج بوقت كافٍ ، ويتفقون على ذلك مع مشايخ الأعراب والبدو الذين يعيشون في المناطق التي تسلكها القوافل .



من أيام السلطان عبد الحميد الثاني

### أهم طرق القوافل

وأهم الطرق التي كانت تسلكها القوافل بين الحرمين الشريفين هي:

١. **الطريق السلطاني:** أي الطريق الرئيسي ، وكان على حجاج القافلة التي تسلك هذا الطريق أن يتجمعوا عند وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة للاتجاه إلى المدينة المنورة . ويتزود الحجاج فيها بما يلزمهم ، ثم يتجهون إلى بئر عسفان ، وتسلق طريقها حتى تصل إلى رابع التي تفرق عندها الطرق ، وإن كان أكثرها استعمالا هو الطريق السلطاني .

كان الحماله هم الذين يحددون أماكن التوقف ، وكانوا

للطريق السلطاني والطريق الفرعي تجعل منه معبرا مطروقا من قبل المشاة، أو من يتطون صهوة الخيول، أو من قبل فرسان الخيالة والهجانة التابعين لقوة الدولة العثمانية، والمنوط بها حفظ الأمن وحماية مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتورد بعض كتب التاريخ أن النبي محمدا ﷺ قد سلك هذا الطريق عند هجرته الميمونة إلى المدينة المنورة.

وهناك أيضا الطريق الشرقي الذي يربط المدينة المنورة ومكة المكرمة، وهو طريق كبير ومتسع إلى حد ما، وكثيرا ما تسلكه القوافل المترددة بين المدينتين المقدستين، وهو الطريق المفضل عند قوافل الحمل، والقوافل التي كانت تحمل الصرة، وخاصة في المواسم التي كانت تشتد فيها الحرارة، وتزداد فيها حملات الحجاجين على القانن، وتسلمهم على الطرق الأخرى.

وعرف بهذا الاسم لوقوعه على الطرف الشرقي من بلاد الحجاز، وتصل القوافل التي تقطع هذا الطريق إلى مرحلة بئر الليمون بعد مسيرة أربع عشرة ساعة، ثم بئر برود الذي تفضل القوافل الاستراحة عنده، والتزود من مياه العذبة. وبعد المرور من بضعة آبار ومراحل أخرى تصل القوافل إلى «بركة زبيدة»، وهي البركة التي أمرت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بتشييدها لتجمع فيها مياه السيول في هذه المنطقة.

ومن الطرق الفرعية التي تسلكها القوافل بين المدينة المنورة ومكة المكرمة أيضا طريق ينبع البحر. فينبع البحر تعد مرفأ المدينة المنورة. والقوافل المتجهة إلى البلدة الطيبة تصل أولا إلى «بئر سعيد» ثم قرية «صفراء»، وعند هذه القرية يلتقي طريق ينبع البحر مع الطريق السلطاني، ومن ينبع حتى طيبة الطيبة خمس مراحل سيرا بقوافل الجمال. والمعروف أن المرحلة هي مسيرة يوم واحد بالجمال، أي مسيرة سبعة وعشرين ميلا. وتمر القوافل التي تسلك هذا الطريق بقرية بدر المباركة، ويقراؤها الفاتحة على أرواح شهداء بدر الكبرى، وهذا الطريق سهل ومستوٍ يمشع القوافل على عبوره.

### أشهر الطرق إلى مكة المكرمة

أما أشهر الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة، وكانت تسلكها قوافل الحج القادمة من بلدان العالم الإسلامي فكانت سبعة طرق، وبينها كالتالي:

يفضلون تلك التي تضم آبارا للترود بالمياه. وتعودت القوافل أن تدخل المدينة في اليوم السادس من خروجها من رابغ. وهذا الطريق السلطاني كان هو الطريق المعتاد بالنسبة لقوافل الحج وقوافل المحامل. وبالرغم من قلة مياهه فإن مطالعه ومنازله الوعرة كانت شبه معدومة، ولكن كانت تبعد عنه بعض الشيء سلاسل جبلية مكنت بعض عربان البدو من مهاجمة هذه القوافل، مما دفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب التجار إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بالطرق الفرعية لعمرانها وعدم خطورتها.

٢. **الطريق الفرعي:** هو الطريق المؤدي من رابغ إلى المدينة المنورة عن طريق «بريدة». والذين يودون السفر عن طريق «الطريق الفرعي» يتجمعون عند «المرحلة»، التي تسمى آنذاك «بئر رضوان»، وهي تبعد مسيرة ثنتي عشرة ساعة من رابغ،



التيها الشريفة من اليوم السلطان عبد الحميد الثاني

ويتزودون بالمياه والمؤن، ثم يسلكون الطريق مارين بقرية «أبي ضياعة» و«ريان» و«أم العيال» و«مضيق» و«صمد»، ثم يمر القوافل من المنطقة المنخفضة التي تسمى الغدير التي تتجمع فيها مياه الأمطار فتتحولها إلى ما يشبه البحيرة.

الطريق الفرعي الثاني المؤدي إلى المدينة المنورة هو طريق غابر، وبالرغم من أن المسافة عبر هذا الطريق كانت تقطع في خمسة أيام من مكة إلى المدينة، فإنه طريق جبلي، كثير المطالع والمنازل، مما جعله صعب المنال بالنسبة للجمال التي غالبا ما تكون محملة بأشياء ثقلية، وتجعل قطع الطريق مرهقا، كما أن كثرة الجبال تجعله مرتعا لقطاع الطرق والأشقياء، مما يدفع الجمالة إلى الابتعاد عنه وعدم سلوكه، إلا أن قصره بالنسبة

## ١. طريق الشام

هو الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الحج القادمة من الشام وكذلك قافلة محمل الشام. وكانت قافلة الشام تتحرك في أغلب المواسم في الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج، وكان يتولاها في العادة والي سوريا. وقبل التحرك يجري احتفال كبير ينظمه قائد الجيش الخامس، وبعد القيام بالتشريفات الموهودة في مثل هذه الأمور تخرج القافلة من الشام من «قبة الحاج»، التي كانت تعد نقطة البدء للقافلة، ومنها إلى الكسوة حيث ينضم إليها الحجاج الذين تجمعوا في «مزريب»، ثم تتجه مجتمعة إلى المراحل التالية.

ومن المناطق التي تمر بها القافلة عبر هذا الطريق منتزه مزريب في حوران، ويجوار عين مزريب أمر السلطان سليم الأول ببناء قلعة -ما زالت أطلالها باقية حتى الآن- لحماية قافلة الحج، ثم الزرقاء فاللقاء، ثم القطرنة حيث القلعة التي شيدها سليمان القانوني بجوار البركة التي أمر بإعادة تطهيرها بعد أن كانت قد تساوت مع الأرض. ومن القطرنة تتابع القافلة سيرها حتى الكرك، ثم عنيزة، قلعة معان. وهذه المنطقة تسجل كتب التاريخ أنها كانت مقر إقامة بني أمية، وأمر السلطان سليمان القانوني بإقامة قلعة وحفر بئر فيها. ومن معان إلى ظهر العقبة نحو «ذات الحج»، وفي ذات الحج أو حجر هذه أمر القانوني بإقامة قلعة لحماية القوافل من غارات البدو والأعراب، وتشتهر بتمورها وثمارها الجيدة. ومنها إلى «قاع البسيط» فتبوك ثم أخضر التي تقع في منتصف المسافة بين مكة والشام.

وقد كلف السلطان سليمان القانوني عند جلوسه على العرش سنة ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م واليه على الشام مصطفى باشا ببناء قلعة أخضر، وبعدها تصل القوافل إلى بركة المعظم، ثم جبل الطاق الذي عقرت فيه ناقة النبي صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. ثم مبرك الناقة، ثم قرى صالح، ثم ديار ثمود، وهي تلك المنازل التي نحتت في الجبال، وفيها مسجد النبي صالح عليه السلام، ومنها إلى العلا التي تبعد عن المدينة المنورة بست مراحل، وهي من ملحقات المدينة المنورة؛ وأمر السلطان القانوني بتجديد قلعتها وحصنها لحمايتها من غارات الأعراب. ومنها إلى شعب النعام ومنزل فحلتن، ثم وادي القرى الذي تكثر فيه المياه والغابات، وأبيار علي رضى الله عنه، وفيها يحرم الحجيج جميعاً. ومنها تمر القوافل بقبور الشهداء، ثم الجديدة وقاع البرو

وبلاد طارق وعقبة السويق؛ ومنها إلى عسقلان حيث الآبار النبوية المأثورة، وبعدها تدخل القوافل إلى مكة المكرمة في أوائل ذي الحجة من كل عام، بعد أن تكون قد قطعت المسافة من المدينة في مائة وست ساعات.

## ٢. طريق مصر

وقد جرت العادة منذ القدم أن يصحب أمير الحج المصري الحمل وسط احتفال كبير من القاهرة متجهاً إلى بركة الحاج. وهناك يلتقي بجموع قافلة الحج المصرية، حيث يتجهون سوياً إلى هدف البويب، ثم يتجه الموكب بعد ذلك إلى الحمرا، حيث أقامت السلطات المعنية آنذاك عدة أبنية وسقاية ماء ليتزود منها الحجاج؛ ومنها إلى بركة عجرود التي تقع تجاه السويس وتسمى أيضاً «عيون موسى»، وكان بها خان كبير منذ زمن قانصوه



صورة أسرى كرم سلطان محمد حسين الثاني

الغوري. ثم تتحرك القافلة إلى منصرف، وفيها بعض المنخفضات التي يظن أن ملوكاً سابقين قد حفروها في العصور الغابرة للربط بين البحرين الأبيض والأحمر، وهي التي حفرت مكانها قناة السويس. ومنها إلى قبيبات، ثم أول التيه حيث على الجانب الأيمن جبل الطور والجانب الأيسر جبل العريش. وفي وادي النعمان قام والي مصر علي باشا بتوسيع الحصن والسقاية لخدمة الحجاج، ويقوم الحراس بملء حوض الفسقية قبل وصول الحجاج، وبعدها تتابع القافلة سيرها حتى مغارة شعيب وعيون القصب وشرم ومويلحة، وفيها دار قايماي، ثم بطن كبريت فأرلهم فالوجه فجبل الزيت حتى ينبع، وتستمر القوافل من العقبة حتى رابع، ثم تواصل سيرها في الطريق المعروف حتى مكة.

### ٣. طريق عدن

تخرج القافلة وسط احتفال مشهود من الحج إلى يكرد، ثم تعز، ثم وادي الحسن، ثم تنزل القوافل إلى «حيس». وكان الحمل اليمني يخرج من عدن عندما كانت تحت الإدارة العثمانية، ومنذ سنة ٩٦٣هـ بدأ الوزير مصطفى باشا والي اليمن في تنظيم موكب الحمل الشريف باسم محمل صنعاء اليمن على إثر صدور فرمان له بهذا الصدد.

يتحرك الموكب من حيس إلى زيد فرقع، ومنها إلى بيت العقبة الصغير، ومنها إلى قطيع، ثم المنصورية، ثم يتابع الموكب سيره في الطريق المعهود.

أما حجاج شحر فإنهم يتجهون إلى حضرموت برا، ثم إلى صنعاء، ثم يضمون هناك إلى قافلة صنعاء، ويتجهون سوياً إلى



موكب الحج من مكة إلى مكة المكرمة

### ٥. طريق الحسا

وهو الطريق الذي كانت تسلكه جموع حجاج نجد والجزيرة مارين بالدرعية فشعرا ثم مربب، ومن هناك مروراً ببعض المراحل، حتى ذات عرق حيث مكان إحرام سكان نجد فساحة الكعبة المشرفة.

### ٦. طريق البصرة

تتحرك القافلة من البصرة إلى الدرعية، ثم إلى صفوان، ثم إلى منزل «جهر»، وتطوّر رحالها للتزود بالمياه والمؤن، ثم تتجه إلى حصن النبي موسى الموجود في «أضافا»، وبعدها تتحرك القافلة مارة بالعديد من المواقع والمنازل، حتى تصل أيضاً إلى «ذات عرق»، التي تعد مقيات حجاج نجد والبصرة، حيث يحرمون فيها ثم يتجهون إلى بستان بني عامر، فمكة المكرمة حيث بيت الله الحرام.

### ٧. طريق بغداد

يتجمع حجاج فارس وأذربيجان وغيرها من هذه المناطق في بغداد، وتتحرك القافلة من بغداد حتى تنزل بهضبة (صربان)، فيضمد إلى الموكب جموع أخرى من الحجاج متجهين نحو هضبة (قراشر)، ومنها إلى شط الفرات، ثم إلى الكوفة، فنشهد علي المسمى (سد بدياء التجف)، ومنه إلى «متعب»، ومن هناك إلى «فرع» مروراً بكثير من المراحل، حتى يلتقي بقافلة واسط في المكان المسمى «ثعلب»، ثم تتابع القافلة سيرها.

ويزدان الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة بالأنبياء وأسيلة المياه والخانات وغيرها من الأبنية رفيعة المستوى، وخاصة تلك التي أمرت ببنائها السيدة «زبيدة» زوجة هارون الرشيد العباسي، والسلطان ملكشاه السلجوقي. وقد حافظ عليها وعنى بها السلاطين العثمانيون جميعاً.

### حماية طرق الحج

ولحماية طرق هذه القوافل كانت الدولة العثمانية تقيم الحصون والقلاع وتخافز على طول الطرق، وتوفر لها القوات التي تقوم بالحراسة وكسر شوكة قطاع الطرق والبدو والخارجين عليها. وأقامت في المدينة المنورة قلعة كبيرة وفرت لها القوات اللازمة لحفظ الأمن في المنطقة. كما كان محافظ المدينة يختار من بين كبار الضباط الذين يستطيعون القيام بالمهام المنوطة بهم على أحسن وجه، وكان يجمع في يديه بين السلطين المدنية

مكة المكرمة، ومن شحر إلى حضرموت خمسة منازل، ومنها إلى صنعاء أربعة منازل. وعلى حجاج طظار الذين يودون الاتجاه إلى صنعاء براً أن يقطعوا خمس عشرة مرحلة سيرا، ثم يضمون إلى جموع الحجاج التي احتشدت هناك لمواصلة السير سوياً.

### ٤. طريق عمان

يمثل طريق عمان الطريق الرابع بين الطرق التي تسلكها قوافل الحج الإسلامية. وينتج حجاج عمان بعد أن يخرجوا من حصن المدينة إلى «تروى»، ثم إلى «عجلة»، ومنها إلى «عصوه»، ثم يمر السلاح، وبعد ذلك تشد الرحال نحو مكة. والطريق من الحصن حتى مكة عشرون مرحلة، ولكن لصعراوته وندرة مياهه فإن حجاج عمان يفضلون التوجه والعودة بطريق البحر.



والعسكرية، وكان المحافظ يلقب أحيانا بشيخ الحرم النبوي. كما أنشأت الدولة العثمانية قلعة في مكان مناسب من مضيق الجديدة بناء على طلب من الأهالي لحفظ الأمن.

كما كان الجيش السابع الميداني خاصاً بولاية اليمن، وكانت وحداته كلها تتألف من عساكر نظامية، وكانت فرقة الحجاز المرتبطة بهذا الجيش عبارة عن ثلاث آياتل مشاة ونصف آلاى خيالة وبطارية مدفعية. وقد حرصت الدولة على وضع محطات حراسة بجوار آبار المياه على طرق القوافل، وخاصة قافلتى الحج الشامى والمصري.

ولوقف التهديدات الخارجية لقوافل الحج والأماكن المقدسة قامت الدولة العثمانية بعمل حزام أمن حول الحجاز، يمتد هذا الحزام من سواكن وموانيء اليمن وخليج البصرة وجدة والسويس. ولقد وضعت الدولة في حسيانها أيضا حماية طرق التجارة الشرقية الوافدة من الهند.

وكانت الدولة العثمانية فيما بعد تسعى لتطوير وتنظيم موانيء جدة والحديدة وبنوع، وإقامة الأرصفة والمرافىء، وجعلت هناك أسطولا مقيما من السفن العثمانية للعمل بشكل منظم بين السويس وعدن. وكانت هناك تقارير تقدم من حين لآخر إلى السلاطين العثمانيين تطالب بضرورة إصلاح وتنظيم وحماية الموانيء الممتدة من العقبة حتى باب المندب؛ كما كانت هناك سفن بريدية «بوسمة» تعمل بانتظام بين إستانبول والحديدة، لنقل البريد والجنود بين موانيء البحر الأحمر والحجاز.

### موكب الصرة السلطانية

ثم تم استحداث «صرة آلاى»، وهي القوات التي كانت تقوم بالإعداد للاحتفال بالخروج الصرة والحمل وموكب الحج من أمام القصر السلطاني، ثم ينأى بها المحافظ على الصرة والحمل وقافلة الحج، حتى تصل وتعود في أمن وسلام. وكانت هذه القوات دائما في رفقة هذه المواكب، وكانت تسير برا حتى سنة ١٨٦٤م مستخدمة الجمال والبغال والخيول. وبعد هذا التاريخ شرعت الدولة بإرسالها عن طريق السفن الحربية إلى بيروت أو السويس ومنها إلى جدة أو ينبوع، ثم تكمل رحلتها برفقة قوات الحجاز إلى أماكن الشعائر الدينية. وبعد افتتاح خط السكة الحديد الحجازي ١٩٠٨م كانت ترسل هذه القوات أيضا برفقة هذه المون والهيات والأوقاف، ولا تفارقها إلا بعد أن تصل إلى

هدفها. وكانت هذه القوافل إذا ما خرجت برا تتحرك من إستانبول في الثاني عشر من رجب، ولكن بعد ما تقرر إرسالها عن طريق البحر أصبحت تخرج في الخامس عشر من شعبان من كل عام. كما كان أمين الصرة الهمايونية يُختار في معظم الأحيان من بين كبار العسكريين المشهود لهم بالتميز العسكري والتدين وحسن السير والسلوك والتقى الورع وطهارة اليد والعدل، حتى يشرف بنفسه على القوات المرافقة للحمل، وقافلة الحج. كما يقوم بتسليم الفرمان الخاص بتوزيع أموال الصرة الهمايونية على الحرمين الشريفين وأوجه التصرف والصرف منها إلى شريف مكة ومشايخ الحرمين الشريفين، بحضور رجالات الدولة العلماء وقادة القوات الموجودة في كل من مكة والمدينة وجدة والطائف، وأمرأ قوافل الحج. وكان



صورة من أيام السلطان عبد الحميد الثاني

يشرف بنفسه باعتباره ممثلا للسلطان العثماني على أداء المناسك وحفظ الأمن والأمان خلال موسم الحج كله، إلى أن تغادر القوافل كلها المدينتين المباركتين عائدة إلى بلادها، فيعود أمين الصرة بعد أن يكون قد أشرف أيضا على توزيع الأوقاف والمخصصات على أهالي الحرمين، فيقدم تقريراً مفصلاً إلى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام في الآستانة، وبعدها يمثل بين يدي السلطان ليقدم تقريره عما أنجزه في موسم الحج ومرثياته ومقترحاته للموسم القادم. ٥

٥) جامعة عين شمس، كلية الآداب - مصر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

# رَبِّكَ شَمْسٌ مُتَجَدِّدَةٌ

أ.د. عبد الخليم عويس \*

اخصارى: ربيع الازدهار والخصاء، وتعد بالثاني مساحة المور عبر الخريضة الإنسانية.

وعنى العكس، فعندما تُسبَرُ السكونية السنية، ويصبح الإنسان مجرد جزء من الزمان، تمتد الشتاء بقسوته وظلامه، وتكتمش مساحة المور، وتنبئ سريعاً أزهار الربيع!

وهنا يأتي دور المؤمنين القاعدين من خريجي مدرسة «حرارة» التي هيضت عليها أشعة شمس القرن الأولي «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» (العلق: ١). إنهم مضطربون بالتغيير والتعبير والخرقة باسم الله، ومضطربون برقص الجمود الذي يجعلهم كأنهم بعض الزمان وأخرج اخصاراً والتاريخ، ينتظرون - وهم فاعلون

عاجزون - دورة السنة الطبيعية في التداول، دون أن يعلموا على تطبيق التكامل بينها وبين السنة الاجتماعية سنة التغيير الداخلي اتصالاً بالتغيير الخارجي: «فَإِنَّ لَّيْلَهُ مَا بُغِيَتْ بِمَا يَقُومُ حَتَّى تَبْغُزُوا مَا يَأْتِيهِمْ» (الزمر: ١١). إنهم لم يكونوا مؤمنين حقاً - أسمى من أن يصحبوا جزءاً من الضرورة والزمان. إنهم في حقيقتهم محزوكو قصار التاريخ اخصاري، وقادة «البوره». وهم القادرون قبل غيرهم على حمل مشاعر الوحي وأضواء العقل. وبالثنائي هم الذين يستحقون «الاصطفاء» ليحققوا «الشهادة» على الناس، ويصنعوا «مرئية» العباد الصالحين الوارثين للأرض... «فَلْيُخْبِرْ أَعْمَهُ أَتُخْرِجُتْ لِلنَّاسِ» (آل عمران: ١١٠).

وحتى لو عثرت بهم أحجار، عبر مسيرتهم في التاريخ،

مع كل صباح ترحف أشعة الشمس ببطء وهدهوء مبددةً بقايا الليل المظلم، معنة عن مولد نهار جديد.

وأكثر الناس لا يتكون الوقت، وليس لديهم الباعث ليراقبوا زحف أشعة الشمس، وهي تكتسح وكام السحب وجبال الغيوم؛ لأنهم يظنون أن الشمس لا بد أن تنصهر، وأن المور لا محالة قادم. ولأنهم - كذلك - ألفوا تداول الليل والنهار خصوصاً لسنة الكونية في كل يوم.

وهكذا تعصي سنة التداول في الزمان - دون فعل إنساني - يعقب الليل النهار، ويعقب النهار الليل، وهكذا الأمر في الظلام والنور، والشتاء والربيع.

وقد يضوئ ليل الشتاء، لكن مجيء الربيع حتمية كونية، وقد تسود جمافل الظلام في غياب «البوره» لكن سنة الله الكونية لا تتخلف. فسرعان ما يعود «البوره» إلى الظهور!!

وهذا يظهر الفرض بين السنتين «الطبيعية الكونية» و«الاجتماعية اخصارية»؛ فعلى الرغم من وحدة القانون، إلا أن الفعل الإنساني له دوره المؤثر في سنة التداول الاجتماعية اخصارية.

## الربيع اخصاري

ففي حالة وجود الفعلية الإنسانية، والالتحام الإنساني الواعي بالسنة الطبيعية، والالتزام بثوابت الوحي وتوجيهاته العليا، في هذه الحالة يصبح الإنسان في رسالة فترة «الربيع

فهم -مع ذلك- المؤهلون للأوبة والبعث والإفلاق، مهما تطلَّ غيبتهم عن مسرح الحضارة والتاريخ. إن لهم معالم يهتدون بها، ولهم ثوابت من الوحي -لا يأتيها الباطل- تأخذ بأيديهم إلى التي هي أقوم.

لقد غاب المسلمون حضاريًا منذ عدة قرون، فقدم الأوربيون -في الفراغ- وقادوا الدنيا بالعقل وحده، ونظروا بعين المسيح الدجال، وكالوا بمكائيله، وقاسوا الأمور بمعايير المزدوجة، وزعموا أن لهم «جنة» هي حضارتهم المادية الشبيهة، ولهم «جهنم» اخترعوا لها صورًا من الدمار!

وقد قدّموا -وهذا لا يُنكر- خدماتٍ علمية، لكنهم أتعسوا الإنسان بالذنوبية والعنصرية والحروب لأنفسه الأسباب وباختراع قوانين الصدام ونظرياته المتهافئة (!) وتوثيك البشرية التي حفروا لها القبور - حسب مقولة «رجاء جارودي»- أن تتحرر انتحارًا جماعيًا عولميًا، وتقتد ذاتها ودينها وآخرتها.

فلا بد أن يستيقظ المسلمون، وأن يفضّوا الغبار عن أجسادهم وعقولهم، وأن يخرسوا من الكهف... متلطفين في خروجهم، حذًا على آمال الإنسانية، وحماة لها من الانتحار والدمار، بالحكمة والقنوة والحوار.

ولا بد أن يعود معنى الصلة بين السماء والأرض... ذلك الذي تألق في «حراء» ذات يوم من سنة ٦١٠ م معلنا عن ميلاد جديد للإنسانية. فما أخرج إنسانيتنا المعاصرة أن تولّد من جديد وأن تقرأ من جديد ﴿يَاسْمُ رَبِّكَ﴾ لا باسم المادة أو الصراع أو المعلم الذي لا ينفع، والذي لا يخشى علماؤه الله...!

لقد عاش المسلمون أكثر من عشرة قرون منذ هبطت عليهم ﴿أَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ سادة الحضارة - كما يقول أكبر مؤرخي القرن العشرين «ول ديورانت»- وبهم بدأت الحضارة دورة إنسانية جديدة تخلصت فيها من ظلام استمر عشرة قرون هي «القرون الوسطى» - كما يقولون -، بل تخلصت من ظلام هيمن على الحضارة الإنسانية عشرات القرون

قبل ظهور العصر القرآني، في ظل حضارات وثنية وأسطورية واستعلائية، لم تقدر الله حق قدره إلا في القليل النادر من الزمان. بينما اخترعت مئات الأصنام والأوثان وخضعت لها خضوع العبيد فاقد الوعي والإحساس.

وعندما نزلت ﴿أَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في حراء كانت شمسًا جديدة تطلّ على الكون، جامعة في نسج واحد بين قراءة الوحي والعقل والكون. فتحقّق لأول مرة في تاريخ الحضارات رسم خريطة تتناغم فيها الرّبّانية والإنسانية على امتداد إشعاعات الوعي الإنساني.

وما كان ممكنًا قبل هذا الحدث الفارق أن تكون هناك حضارة إنسانية تصل فيها الأرض بالسماء من خلال وسائل تتحدد فيها العلاقة الواضحة بين «الله» المعبود الخالق وبين «الإنسان» العابد المخلوق.

لقد كان «الكون» قبل هذا الحدث الذي وقع في «حراء» معبودًا يخشاه الإنسان ويتقرب إليه بشئى القرائين ووسائل التعبير الدالة على الخضوع والخوف والعبادة. فجاء «العصر القرآني» يضع الكون في مكانه الصحيح؛ كونًا مسخرًا للإنسان، ليستخدمة الإنسان لتحقيق العبودية لله، وتعمير الأرض باسم الله، ولتسيح الله. وبالتالي أصبح الكون الذي كان في الوعي الإنساني الوثني معبودًا «عابدًا» خاضعًا للبحث والاكتشاف والتسخير. ورجع الكون في الوعي الإنساني إلى حجمه الصحيح؛ مفعولًا به، وليس فاعلًا، مطبوعًا لا طابعًا، نقشًا لا نقاشًا، متحفًا ومعرضًا لإظهار تجليات الخالق العظيم الذي استخلف الإنسان وعلمه الأسماء كلها وزوّده بالوحي والعقل والإرادة.

### الإسلام والتعامل مع الكون

وما كان ممكنًا قبل هذا التحول الذي قدّمه الإسلام في التعامل مع الكون، أن تكون هناك حضارة إسلامية تمثل منعطفًا جديدًا في تاريخ التمدّن الإنساني. وما كان ممكنًا -كذلك- أن تكون هناك حضارة أوربية أو رُفّي إنساني. بينما الكون معطل عن التسخير، يحتلّ

عندما تُسيطر  
السكونية السلبية،  
ويُصبح الإنسان  
بمجرد جزء من الزمان،  
يتمدّ الشتاء بقسوته  
وظلامه، وتكتمش  
مساحة النور، وتذبل  
سريعًا أزهار الربيع!  
فهنا يتألق دور  
المؤمنين الفاعلين من  
خريجي مدرسة  
«حراء»

فلا بد أن يستيقظ المسلمون، وأن ينفضوا الغبار عن أجسادهم وعقولهم، وأن يخرجوا من الكهف... متلطفين في خروجهم، حذاة على آمال الإنسانية، وحماة لها من الانتحار والدمار، بالْحِكْمَةِ والقُدُوة والحوار.

مكانة «مقلوبة»، فتعطل مع وضعه المقلوب ملكات الإنسان، وبالتالي لا يجد الإنسان عالم «الآفاق» الذي يحقق من خلاله شروط الاستخلاف.

لقد نصح المسلمون «السلف» خلال مدة تزيد على عشرة قرون - كما ذكرنا- في أن يقدموا حضارة معتدلة الموازين والقيم، تتكامل فيها ثوابت الوحي مع حركة العقل مع الرؤية الرشيدة للكون والحياة.

فلما احتل الميزان في أيديهم وفقدوا مؤهلات القيادة الحضارية، وختلفَ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأهملوا العلم والعمل، وفتت السنة الكونية والاجتماعية، أخذ منهم الأوروبيون القيادة فحرقوا بالعقل وحده، مؤلَّهين «المصلحة» و «المادية» في إطار الفرد والمذهب الفردي طوراً، وفي إطار الجماعة والمذهب الجماعي طوراً آخر، وكانت الآخرة والروح والجوانب الدنيوية بعيدة كل البعد عن التخطيط والتخطيط هنا وهناك. فعادت سفينة البشرية تجتاح إلى العرق من جديد، وسيطرت «الفقوة»، ومع القوة «الظلم»، ومع الظلم «ازدواج المعايير»، ومع اختلال الموازين سيطرت «العنصرية» و«الأناية»... فارتفعت بالتالي آيات الصدाम والشقاء، وانخفضت آيات التعارف والسعادة.

وهنا، وعند هذا المَحاظ، لم يبق إلا أن يعود المسلمون إلى القيادة من جديد، متجاوزين عصر الانحطاط، دخولاً في دورة حضارية أخرى ووصولاً بعون الله إلى عصر الشهادة على الناس، والخيرية، والقيادة الحضارية للإنسانية!

وكما خرج «النور» من «حراء» عندما هبط الوحي معلناً بداية العصر القرآني، «عصر تكامل القراءات السماوية والكونية والعقلية» كذلك ينبغي أن يتمثل المسلمون في دورتهم الحضارية الجديدة معاني البعث القائم على القراءات المتناغمة المتكاملة السابقة بلا تعارض أو خلل!

### شمس القرآن

ومن هنا ينبغي النظر إلى شمس القرآن بعين

جديدة «أصيلة معاصرة» لا تهمل الماضي ولا تتجاهل المستقبل. وفي هذا المقام قد نجد بين أيدينا عددًا رائعًا من الرؤى التي لا يمكن الغشُّ من قيمتها ولا الانقراض من قدر أصحابها. هؤلاء الأعلام الذين حاولوا بعث الأمة من خلال الحياة في ظلال القرآن والحياة في فقه السيرة.

يبدُ أننا نرى أن لدراسات «النور» ليدع الزمان سعيد النورسي زيادة خاصة، كما نرى للمشروع الفكري السائر على درب «النورسي» الذي يقدمه بآليات معاصرة عملاقة الدعاية المصلح الشيخ «فتح الله كولن» ممثلاً في «النور الخالد» وفي نحو خمسين كتاباً معه زيادة خاصة كذلك.

والمشروعان لا ينفصلان، وكلاهما قدّم ما يستطيع في ظل الظروف المتاحة، وهما يصبّان في خندق واحد ويتجهان إلى غاية واحدة.

إنها غاية إنقاذ الإنسانية والمسلمين، من خلال «القرآن» ومن خلال تطبيق النبي الكريم للقرآن على الواقع، وهو النبي الكريم الذي كان «قرآناً» يمضي على الأرض والذي كان «خالق القرآن» قولاً وفعلاً وتقريراً، بعيداً عن «المثالية» العاجزة عن التطبيق والتي حلم بها الفلاسفة الطوباويون. وأيضاً ارتفاعاً بمستوى «الواقعية» التي يهبط بها إلى «الخيونية» الواقعيون.

لقد قدم النبي ﷺ واقعيةً ترتفع إلى قريب من شمس «النور الخالد»... شمس المثالية الإنسانية التي لا يمكن أن يصنعها إلا كتاب الله فكرًا وتربيةً وتطبيقاً، وسيرة الرسول الكريم ﷺ فعلاً وحركةً وتطبيقاً.

وبالفكر القرآني والتطبيق النبوي تتحقق الحضارة الإنسانية التي انطلقت من «حراء»، بعد أن هبط بها جبريل عليه السلام من السماء. «نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» (النور: ٣٥).

وعلى المسلمين استئنافها اليوم مستعينين بالله، وما ذلك على الله بيعيد! ❦

«أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - مصر»

# أم ما زلتَ ظمّانا؟!



نبيلة الخطيب \*

أم هيجَ الشوق في جنبك نيرانا؟  
 بين الشهيدين تسيحاً وتحناناً؟  
 تدفّق البُصْ في الأوصال ولهاناً؟  
 وهل قرأتَ بذاك الفجر قرآناً؟  
 سجادة الوصل في البدياء بستانا  
 بغير ذي الزرع نسريناً وريحاناً  
 ترأه يعلن بعد اليوم عصياناً؟  
 لقد سكنت أعزّ الأرض أوطاناً  
 لأنتَ أنسَ خلق الله إنساناً  
 فأنْتَ أوفرهم أهلاً وخِلاناً  
 من الأمانى أم هل باتَ يقطّنا  
 ولا ادعاء ولا وهماً وبهتاناً  
 وتلغى الأرض أنجاداً وودياناً  
 ومن صدى الوجد قد صدعتْ وجدنا  
 بالظهر نفسي وفاض القلب إيماناً<sup>١</sup>  
 فيضٌ من الشوق يحدونا، ورُكباناً  
 والنحرُ سيقَ يوم النحر قرباناً  
 وعشتُ أشواقها عُمرأ وأزماناً  
 أطوفُ والدمع في خدي طوفاناً  
 من ذا يطيق لها بيناً وهجراناً؟!  
 أرجو وقد رانت الآثامُ غفراناً  
 دنوئهم بلغت كالموج إحساناً  
 ألتست يا سائر الكبوات مَنّاً؟  
 سميتَ نفسك يا رحمانَ رحماناً<sup>٢</sup>

هل طفتَ بالبيت ، أم ما زلتَ ظمّانا؟!  
 وهل سمعتَ كما الأنفاسُ لاهثة  
 أرحتَ ترمل بين الأخضرين كما  
 وهل سمعتَ يامَ البيت مبهتلاً؟  
 علقتُ قلبي بخيط الفجر فانبعثتُ  
 كيف السجود الذي أرقاه يزرعي  
 لهجتُ بالحب حيث القول طاووعي  
 يا جار بكّة طوبى للمقيم بها  
 تجاور البيت حين الأرض موحشة  
 تصافح الركنَ حين الناس في حرد  
 ما زلتُ أسأل وعي أهو في سنة  
 أنا بكّة - إي والله - لا حلماً  
 عيني تعانق ما طافت شواهقها  
 إني ألبي وعين الله شاهدة  
 تجدد العمر في عرفات وانغسلتُ  
 زُلقي إليك رجلاً، قد أفاض بنا  
 نرمي الجمار ويعلو الحق منتصراً  
 ذي كعبة الله كيف اليوم أبرحها؟!  
 يوم الوداع وداع العاشقين لها  
 أرجع الطرف والخطوات حائرة  
 يا رامة البيت قد أرمأت معتكفاً  
 يا رب أنت وعدتَ الثابين، وإن  
 اليوم أبنا وذُبننا ربنا خجلاً  
 برحمة منك يا من قبلَ تخلقنا

(١) شاعرة وأديبة - الأردن .

(٢) تزامن يوم ميلاد الشاعرة ويوم عرفة في رحلة الحج الأولى لها ، فكانما ولدت مرتين .



# حين يتكلم النمل

أ.د. عرفان يلماز \*

تحياتي أيها الإنسان!

لنك الشكر لأنك أدرت وجودي ولم تسحقني تحت أقدامك. كم تقفل كل يوم من أبناء جنسي تحت أقدامك. هل فكرت بذلك؟ من المؤكد أنك تفعل ذلك دون قصد! حسناً. إن كل عمة أو حشرة صغيرة مثني إيماناً هي آية خارقة من آيات الفن والإبداع في تستطيع الإتيان بمنفها. ربما تكون هذه الدلائل بديعة الصنعة مصدر إلهام لك. إن صنع ساعة صغيرة يتعذب من صانعها إرادة وم هارة فائقة في جمع وتركيب أدوات عديدة وأجزاء دقيقة حتى تستطيع حساب الوقت بدقة وكفاءة. أما أنا فأفكر عنى هذه الآلة دقة وكفاءة وأعتبر أقوى حيوان عنى وجه الأرض. فإن خنتي لا يمكن أن يتم إلا بالعلم الواسع والقدرة الإلامتاهية للخلاق البارئ.

قد تتعجبون وتستغربون من قولتي إنني أقوى مخلوق. ولكن هذا القول ليس بالغريب إذا ما نظرنا إلى الأمر من زاوية مبدأ التفاسب. فأنتم تستطيعون حمل أثقال ضعف أوزانكم أو ثلاثة أضعافها. أما أنا فأحمل بأستاني خمسين ضعف وزني. هكذا أنا، ثقة رباتية وآية فنية رائعة.

إنني أشكل جمعاً غفيراً بعد أكثر مجموعة بين أجناس

وفصائل الأحياء. كل أربعين ولادة جديدة عندكم يقاينها عندنا سبعمائة مليون ولادة. رغم عددنا الهائل هذا، لا تسبب أي إزعاج أو إفساد في هذا العالم، بل تشغل بأداء الواجب الإلهي المقدر لنا بكل همة وتسبيح وحسن أداء بعيداً عن أنظاركم. نجدوننا في جميع أرجاء وبقاع الأرض ما عدا المناطق القطبية، لأننا نفضل العيش في المناطق الدافئة.

نحن مخلوقات اجتماعية وجمهورية النزعة. نعيش مع بعضنا ونؤدى واجباتنا المقسومة والقدرة لنا بكل حرص وطاعة متناهية مستهدين بالمعرفة والقدرة الربانية التي توجهنا. نؤسس مستعمرات سكنية كبيرة كالمدن العظيمة تعيش فيها ملايين عماد، ولنا فيها مخازن لقوتنا، وبيوت لثوية صغارنا وقلاع لجنودنا. نتوزع في فصائل تتجاوز تسعة آلاف، يتألف كل فصليل بحسب المنهاج المعد في حثنته من الشغبنة العامة في الفتشظف، إلى المزارعين وهرمي الخبوانات. وتتمتع كل فصيلة بصفات وميزات جديدة تؤهلها لأداء الواجب المحدد لها.

لعل ميزتنا الكبرى تتجلى في دقة التنظيم الاجتماعي الذي لم نستطيعوا أنتم البشر تحقيقه فيما بينكم حتى الآن. ورغم وجود الأنبياء والرسل بينكم، لم تصلوا إلى تأسيس مجتمع مثالي (عدا



## الملكة - العاملة - الجندي

كيف بدأ تقسيمنا حسب متطلبات واجباتنا منذ بداية خلقنا ووجودنا إلى ملكات وعاملات وجنود، وكيف أتت كل هذه الفروق؟ من الذي أقع عاملاتنا على التخصص والفرغ لخدمة ورعاية الملكات؟ حسب نظرية التطور فإن كل فرد يفكر لنفسه فقط، وهو في نزاع وصراع دائم مع غيره للبقاء. من الذي أوكل لجنودنا مهمة الحراسة؟ من غير صاحب «القدرة اللامحدودة» يمسك هذه الملايين من الأفراد ضمن مجموعة متعاونة ومتفانية؟!

تتمد سيطرة بعض ممالكنا إلى حوالي ٢-٣ كيلومتر مربع من الأرض. وتشكل كل مملكة من أربعين إلى خمس وأربعين مستعمرة تترابط فيما بينها رغم وجود مليون من الملكات وأكثر من ثلاثمائة مليون من العاملات، تعيش في تناغم وتناسق دون حدوث أي اضطراب أو إزعاج. ملكاتنا مكلفات بوضع البيوض مدى الحياة للديمومة واستمرارية بقاء الخلية، وقد توجد أكثر من ملكة في كل خلية. واجبات الذكور المتميزين بأكبر أحجامهم تنحصر في نقل الحيامن إلى الملكة خلال جولة قصيرة من الطيران، وتنتهي بعدها حياتهم إلى القناء.

جنودنا مجهزون بأسلحة كيميائية خاصة، وواجبهم الحفاظ على أمن وسلامة الخلية بما زودوا به من أسنان ورؤوس قوية. هؤلاء لا يفكرون مطلقاً بالقيام بانقلابات أو ثورات. ينحصر تفكيرهم في مستقبل دولتهم دون أن يخطر على بالهم الحصول على المنافع أو اللجوء إلى استخدام وسائل قذرة وتحت أسرار الظلام. العاملات المسؤولات عن الحياة الاقتصادية لممالكنا أناث عقيمات قاصرات عن الإنجاب.

يقوم قسم من العاملات بتغذية وخدمة الملكة والأجنّة بكل همة ونشاط. بينما تنهمك أخريات في تهيئة مساكن إضافية وحفر أنفاق للقادحين الجدد، وتخرج أخريات في مهام الكشف والتفتيش عن مصادر الطعام، ومتى ما وجدوا مصدراً جديداً

فترات قليلة مثل عصر النسوة السعيد وفترات متفرقة على شاكلته). ورغم تجهيزكم بميزات مثل العقل والإدراك والمشاعر، إلا أنكم تملكون أيضاً الأحاسيس السيئة والنفس الأمارة بالسوء كأدوات اختبار وامتحان تقف عثرة أمام وصولكم إلى تأسيس المجتمع المنشود.

نحن مع عزتنا وضعفنا، نستند إلى ما أوحاه لنا خالقنا، وما فصله لنا من نخط الحياة، بطاعة تامة وتسليم مطلق دون تفسير أو تأويل. وبعملنا الذؤوب وهمتنا المتواصلة استطعنا تأسيس نظام مملكة ودولة ومؤسسات بالغة الكمال والتنظيم.

## حياتنا الاجتماعية

هذه الحياة التي تأسست بوعي الخالق تعتمد على مبدأ التفاني والتضحية. يقوم كل فرد بأداء ما يوكل إليه من واجبات، دون التدخل في أمور الآخرين، وتقدم مصلحة المجموع على مصلحة الأفراد وصولاً إلى حياة اجتماعية قاعدتها الذهبية «التنظيم والتنسيق».

هذه التصرفات التي تعتبر صفة امتياز لكم أنتم بني البشر لا يمكن مطلقاً تفسيرها أو تأويلها استناداً إلى نظريات التطور والتغيير والانتخاب الطبيعي. إن أنصار نظرية التطور يدعون أننا تطورنا قبل ثمانين مليون سنة من نحلة برية نتيجة عوامل التنافس على البقاء.

أي كنا نعيش على شكل أفراد فأحسبنا بقوادق ومزايا العيش في مجموعات كثيفة لنحافظ على ديمومتنا قتلنا لبعضنا البعض: «لنكن حشرات اجتماعية، لأن العيش في مجموعة أفضل وأصلح لنا من نزاعنا على البقاء بين الأجناس والأنواع الأخرى». لتقليل جدلاً أننا توصلنا إلى هذا المنطق والتفكير واتقنا عليه، كيف إذن توصلنا إلى خلق أصناف متعددة، وهذا التنوع في الوظائف، ثم هذا التقسيم في المهام وما يتطلبه من مميزات وآليات بدنية خاصة لكل صنف لكي يؤدي وظيفة محددة إلى جانب آليات التكاثر؟ ليس لدينا كل هذا العلم، كما لا نملك هذه القدرة.



لقدرته وعلمه. فحين يشح الغذاء -مثلاً- تبادر العاملات إلى تقديم خدمات وآلية تغذية خاصة. فهي تمتلك خاصية في معداتها الإضافية الاحتياطية حيث تتحول المادة الغذائية إلى حالة مركزة عن طريق معالمتها بمواد كيميائية تتم بها تغذية الأفراد التي أصابها الضعف والهزال. وحالما تنتهي حالات نقص الغذاء، ترجع هذه العاملات إلى الأوضاع الطبيعية التي كانت عليها. كيف يتسنى لمملكة تعدادها خمسون مليون فرد أن تخلو تماماً من المضاعب والخلل لولا هذه التضحيات؟!

نحن نؤمن بمبدأ «الوصول إلى الهدف بأقصر طريق». نخرج للبحث عن الغذاء بنسق واحد ونعتمد في متابعة طريقنا على الروائح التي يتركها الآخرون.

إن مساكننا ليست دائماً تحت الأرض. فبعض الأنواع منا تسكن فوق الأرض، وأخرى تبني أعشاشها على النباتات والأشجار. الأنواع التي تعيش تحت الأرض لا تملك أجنحة عادة. وإنما تتحول إلى أفراد قابلة للتكاثر وذات أجنحة عندما يحصل ازدحام كبير ويتقرر تشكيل مستعمرة جديدة فتغادر المستعمرة طائرة، ويتم تلقيح الملكة من قبل الذكور قبل أن تحط المجموعة على الأرض. وهنا ينتهي دور الذكور وتموت، بينما تستمر الملكة بإنتاج البيوض طيلة حياتها. هنا تسقط أجنحة الملكة لعدم الحاجة إليها، وتبني لها غرفة تضع فيها بيوضها في صفوف. وبعد ستة أو ثمانية أسابيع تفقس لتخرج منها العاملات البالغات التي تتغذى على ما تظهرها الملكة من إفرازات، وسرعان ما تبدأ العاملات ببناء وتشبيد خلايا وأماكن جديدة.

كذلك تتمتع بذاكرة قوية جداً حيث تلفظ صوراً لكافة الأماكن التي نمر بها ونحفظها ونخزنها في ذاكرتنا، لكي نعود ثانية إلى أعشاشنا إذا ما ابتعدنا عنها. ونعتمد في ذلك على ما



للغذاء

يخبرون

الآخرين عن مكانه.

وهناك فئات وتشكيلات

ثانوية بين الجنود والعاملات تنوزع

مهامها في أعمال البناء وجمع القوت

وتربية النسل الجديد وحراسة الأسرى،

ومجموعات متخصصة للسلب والنهب.

### العاملات المخلصات

اقتصاد مملكتنا يقع على عاتق عاملاتنا. فهي تستعمل أفواهها المسلحة بفكوك متينة لتكسير وتفتيت حبات القمح رغم صلابتها، ومن ثم طحنها وتسليمها إلى مجموعة أخرى من العاملات لكي تقوم بعجنها ونشرها لتجف تحت الشمس على شكل أقراص رقيقة تخزن مؤونة لموسم الشتاء.

### تكيف الأجواء داخل الخلية

مئات الخلايا التي تشكل مملكتنا تمتاز بوجود معايير دقيقة جداً في تأمين الظروف المناخية الجيدة داخلها. نحن الذين لم ندرس أو نتعلم علم الأنواء الجوية والمناخ أو فيزياء التكيف، بل لا نعلم كيف يجب أن تكون شروط تهوية الظروف المناخية الملائمة، نجد أنفسنا، وتوجيه إلهي حكيم، قد هيأنا فعلاً أجواءً وظروفاً متوازنة عجيبية. إن بناء مداخل الخلايا باتجاه الشمس وضبطها اعتماداً على المجال المغناطيسي للأرض، وعزل منافذ التهوية، وخلق أجواء مناخية داخل الخلية بالمحافظة على الحرارة المناسبة طيلة ساعات النهار، كل هذه الأمور ليس لنا أي علم أو دراية بها. نحن لا نملك العلم الكافي لاتخاذ القرار الخاص بفتح منافذ جديدة للتهوية، ولا بالسيطرة على توازن الحرارة والبرودة عند توسيع مساحة الخلايا لاستيعابها أعداداً إضافية جديدة، ولا بتحديد حجم واتجاه التوسعات المطلوبة بشكل لا يحدث خللاً في أجواء المستعمرة... كلا فلا استقرار والسكينة يجري تأمينهما في مملكتنا بالإلهام المستند إلى التقدير الرباني الذي لا حدود



يكونوا يشيدون  
مبانيهم في  
أرض لم  
نكن نبنا عليها  
مستعمراتنا. لقد  
أدركوا أننا لا نبنى

أعشاشنا على تربة غير مستقرة  
وغير متماسكة. كما أدرك مؤخرًا  
مهندسو العمارات العالية إلى ما توصلنا إليه

نحن من وسائل رخيصة وعملية في تنظيم التنوية  
والخافضة على الحرارة. ومن جهة أخرى بدأ علماء

الحاسبات في إيجاد الحلول والتصاميم الخاصة بتأمين سلامة انتقال  
ونقل خزنات الوقود وإيجاد وسائل تحول دون تعرضها  
للحوادث، كل هذا استناداً إلى برنامج خاص سمي باسمنا،  
مستأنس إلى ما تتبعها ملكتنا من وسائل خاصة في إدارة شؤونها.

إن ما يدعو إلى أسفنا ويحز في نفوسنا عدم إدراككم هذه  
الحقائق، أتم الذين تُسمَّون بأصحاب القرآن الحكيم رغم ما  
تؤكد آياته عليكم من ضرورة وجوب قراءة كتاب الطبيعة  
والخلق والتفكير فيه. بينما يتوصل غيركم إلى إدراك تلك الحقائق  
على الرغم من أنهم لا يعرفون شيئا من القرآن.

إن جميع أنواعنا سواء تلك التي تتغذى على البقايا الحيوانية أو  
النباتية تؤدي خدمة جليلة وهي خدمة التنظيف، فهي أثناء عملها  
تنظف وجه الأرض وتحول دون تحولها إلى مزرلة كبيرة مروعة.  
ولكي نستطيع تأدية هذه المهمة، زوّدنا الخالق القدوس بزوجين  
من الفكوك في أفواهها؛ الفك الخارجي أكبر حجماً ويقيد في  
حمل الطعام وحفر الأرض، بينما الفك الداخلي الأصغر يقوم  
بتفتيت الطعام وتقطيعه.

عزيزي ابن آدم!

وأنا أنهي كلامي، أتمنى أن تلاحظ مستقبلاً حينما تخطو  
على الأرض جمال هذا المخلوق الصغير وكيف أنه آية من آيات  
الفن الإلهي العظيم. كما أرجو منك ألا تتسحق إخواني، وأن  
تعاملهم كما عامل سليمان عليه السلام أجدادنا. . . ولك مني  
خالص التحية والتقدير. . . والسلام. . .

﴿

﴿ جامعة هـ أبول - تركيا. الترجمة عن التركية: مأمون محمد عاكف.

وهنا الخالق «الحافظ» من مكرمه الحفظ. تمتلك أيضاً موهبة نقل  
وإصال المعلومات ومنظومات تبادل الأخبار فيما بيننا. وكما  
ورد في الآيتين (١٨ ١٩) من سورة النمل كان نبي الله سليمان  
عليه السلام يفهم لغتنا. نعم إن جميع الكائنات والموجودات  
لغاتها الخاصة، غير أن القرآن الكريم تحدث صراحة عن لغة  
الطيور، وضمناً عن لغتنا. إن ربنا الذي أنزل القرآن لتقرأوه  
وتتدبروه وتفقهوه وتنظّموا حياتكم ومعاشكم وفقه يكشف  
أمامكم حقائق ومعارف كثيرة تتوصلون إلى إدراكها لو أمعنت  
النظر جيداً. إن الله جل جلاله سعى سورة من سور الكتاب  
الحكيم بسورة النمل». هذا الكتاب الذي يعتبر بمثابة فهرست  
الكائنات والموجودات؛ أليس في تلك التسمية حكمة بالغة؟!

لماذا يا ترى سميت سورة كاملة باسمي، أنا المخلوق الصغير  
الذي لا يكاد يرى بالعين عندما أمشي على الأرض فأعرض  
للسحق تحت الأقدام أحياناً؟

لنتذكر معاني الآية الفاتحة عشرة من سورة النمل ﴿حَتَّىٰ إِذَا  
أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا  
يَحْطِئُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل: (١٨)

سوف نتوصل إلى إدراك بعض النتائج انعطافاً من الآية الكريمة:  
١. لنا لغتنا الخاصة بنا. ٢. نملكنا وتديرنا سلطه موحدة تخطط  
وتفكر وتعمل نضالنا وتبني سياسة حكيمة في إدارتنا. ٣. نتحرك  
تبعاً لأوامر تصدر إلينا وتُخبر فيما بيننا. ٤. نمتلك حياة اجتماعية  
منظمة وجماعية. ٥. عندنا المخابرون والمراسلون، ومن يؤمّنون  
التنظيم والسيطرة.

لقد توصلت إلى هذه الحقائق من آية قصيرة رغم إدراكي  
الغدود. وأنتم كذلك بإمكانكم أن تتصوروا وتدرّكوا أن  
الأرض تهتز وتقل أمواج الاهتزاز تحت أرجل جيش سليمان عليه  
السلام وتصلنا عبرها أخبارهم لو أمعنت فقط النظر بعين عالم  
طبقات الأرض «الجيولوجيا» وعلوم الأحياء. لقد كنا نحسُّ  
وندرّك أقل اهتزاز يحصل على وجه الأرض بما لدينا من وسائل  
وإمكانات للالتقاط والاستشعار في أرجلنا وانحادات أجسامنا في  
وقت لم يكن أحد قد توصل إلى معرفة ذلك أو حتى علم بها.  
لقد أدرك علماء الأرض مؤخراً ومتخصصو الزلازل ومراقبو  
عالم الحيوان حقيقة خروجنا نحن النمل من أعشاشنا وتركتنا  
نستعمراتنا قبل وقوع الزلازل.

لقد كان أجدادكم أكثر انبهاً منكم لهذه الحقائق. فلم



# صباح العيد في مسجد السلیمانیة

یحیی کمال بیاتلی \*

جوهراً آمال الخيال الذي صَوَّرَ هذا المسجد،  
أن يكون أجمل معبد للدين الأخير المبين...  
واختار له تلاً مباركاً في أفق استانبول مكاناً،  
ليشهد الأباد منه، من كل ركن و صوب...  
حَمَلُ المجاهدون، وروساؤهم لَبَنَاتِهِ على أكثافهم،  
وَقَفَرُ صُلْبِ أَحجاره آلاف الصَّنَاعِ ومهندسهم...  
وإن معمار معبد النصر هذا جندِي مقاتل،  
فصح باباً من أبواب الآخرة،  
من هنا نحو صفحة السماء،  
نحو زمان الوطن الحر الوطيد، بليله ونهاره،  
لتدخل منه جيوشُ الأرواح إلى الرحمة الأزلية...

\* \* \*

أيها المعبد العتيذ: أنا لم أفهمك إلا هذا الصباح!  
فخوراً أنا بك الآن، لأنني ممن ورثوك...  
وكتُ أُنْتُك زماناً أنراً هندسياً عظيماً!  
لكني، إذ أنظر الآن إلى هذا الحشد تحت قبلك،  
أنقل إلى إقليم الغفران للأجداد،  
وكم كت أحلم به ويتوق إليه شوقي!  
هنا حشودُ البشر انصهرت،

في لسان، وقلب، وإيمان واحد،  
تُحسُّ بوحدة وجودها في مكان واحد،  
إذ يذكرون الله الجليل بلسان واحد،  
فيسمَعُ التكبير ألف موج في صوت واحد،  
يرتفع إيقاع أنغامه عالياً وزاخراً،  
مختلطاً بألف راية، وهادراً في أعراف ألف فرس...

\* \* \*

فاض النور في قلبي لحظة بعد لحظة...  
إذ الفجر المهيّب يسطع في «السلیمانیة»،  
في ساعة العيد هذه، وتحت قبة السماء الزرقاء،  
ترتفع ستارةُ الزمان المُعْرِتةُ، أنا بعد آن،  
وترسم صور للناس جميعاً، للبلاد كلها،  
من تسعة قرون غابرة،

\* \* \*

في هذه اللوحة الزرقاء...  
فمنذ انحسار ظلمة الليل...  
يُسمع صوتُ رفيف الأجنحة في السماء،  
ووَقْعُ الأقدام على الأرض  
إنه قدوم، وما أعظمه من قدوم،  
من عالم مبارك وعجيب...  
السماءُ مزدحمة بالأرواح من مداها إلى مداها...  
قدومٌ ومواكبٌ من الأفاق كلها،  
من حملات الفير في الماضي،  
من بلاد، يا لها من بلاد،  
فُحِّتْ في تلك الغزوات...

وإبان امتزاج الضياء بالظلام في هذا السكون...  
يمضي بلا انقطاع خليط من البشر والأرواح!  
يرفون من الأرض، أو يبيضون من السماء...  
يلجئون من الأبواب صفوفاً إلى مسجد الله،  
ويملؤون رحاب مسجد الله،  
تغصو «السلیمانیة» تاريخاً في هذه الساعة...

\* \* \*

قد نذر هذا المعبدُ الله الدودُ شعبٌ كله جُنْدٌ...  
أشدُّ الخلق قتالاً، وأقواهم شكيمةً،



ورأيت في الصف الأول جندياً عرفته من لباسه،  
منصتاً إلى تكرار التكبير في وجدي...  
ما أنقى الصفاء في سيماء هذا الجندي المؤمن!  
من ذا؟

لعله الذي بنى هذا الصرح العُلوي؟  
لعله الذي صممه؟

أم هو الجندي التركي،  
القادم من سهل «ملازكرد»؟  
هذا الطافحُ بالعبرة عينه،  
الناظرُ من العمق،  
هذا الذي وجهه أجمل وجوه الشجعان في الأرض،  
هذا الذي يبدو على قسَماته رَحيقٌ من عظام الأمور...  
هو قوتنا التي أقامت هذا الوطن العظيم، وحارسه...  
هو وجودنا، ودمنا، ورحمتنا...  
هو الوارث الحلي للوطن، هو صاحبه،  
هو سلوى الشعب في هذا الزمان،

في أرضنا اليوم، في كل أرض بقيت لنا...  
وفي كل أرض فقدناها منذ أمد بعيد!  
حُمرَةٌ كثيفةٌ تنفصل الأرضُ عن السماء...  
كأنَّ حدائقَ الوردِ تلهبُ في الجبال التي أمامنا!  
وثُمَّ نداءُ التكبيرِ كالدافع في السماء،  
تنفذ من الأعماق إلى الأعماق،  
فهذه مئات المدن تنادي بعضها...

أهي قريةٌ أم بعيدةُ الداءات؟  
أمن «أسكدار»؟ أم من «الحصار»؟ أم من «قواقلر»؟  
أمن «بورصة»؟ أم «قونية»؟ أم «إزمير»؟  
من بعيد إلى بعيد!  
ثم تتصاعد أصواتنا،  
من جبلٍ، إلى جبلٍ!

الآن ترتفع الأصوات تنادي من كل بُعدٍ،  
من «بايزيد»، من «وان»،  
نداءٌ بعد نداءٍ، أصوات المدافع نفسها،  
من كل مكان...  
\* \* \*

ما أعظمه من سحرٍ مباركٍ ووطيدٍ،  
مشحونٍ بالمشاعر...  
ورجال ونساءٌ وولدان،  
قلوبهم طافحة في كل مكان...  
كلهم يصنّون لرياح الذكريات الجيدة هذه،  
لمدافع «جالديران» بعد مدافع «موهاج».  
من أين هذه النداءات التي تملأ السماء بدويّ المدافع؟  
لا بد أن كل نداء يعلو من نصيرٍ وظفر...  
من «كوسوفا» و«نيغولي» و«وارنة» و«إستانبول»...  
كلُّ نداءٍ يتذكر في هباب وقعة من الوقائع...  
من «بلغراد» و«بودين» و«أكري» و«ايوار»...  
من سلاسل الجبال الشاهقة على الحدود الأخيرة!  
ومن أين تنادي أصوات المدافع في آفاق البحار؟  
أهو «بربروس» يعود بأسطوله من حملة؟  
أمن «الجزر»؟ أم من «تونس»؟ أم من «الجزائر»؟  
عادت مِنّا سفينة من الآفاق الحرة...  
من حيث هَلُ الهلال، من حيث يُحْدَقُون!  
من أيِّ سحرٍ جاءت هذه السفن المباركة؟

لقد انتصرت في هذا المسجد العظيم بوحدة الوطن،  
فحمداً لله، إذ رأيت في هذه الساعة،  
تلك الأرواح التي تعايش أبدان الأحياء،  
فقلبي طافح بالأناوار صباح هذا العيد... ❶

«من كبار شعراء وأدباء تركيا، توفي سنة ١٩٥٨ م.  
الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفلي أوغلو.  
القصيدة ذات عروض شعرية في الأصل وليست  
من الشعر الحرّ.



﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ شَجَرٍ أَخْضَرٍ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾  
(يس: ٨٠)

# دور الشجر الأخضر في خزن طاقة الشمس

د. زغنون النجار \*

البناء الجبوي التي يقوم بها النبات الأخضر والتي عرفت باسم عملية التمثيل الضوئي، أو بعملية البناء الضوئي،

والنباتات الخضراء قد خضعت للحاقي سبحانه وتعالى بصفى العنصر (الكولوريل) المثلون لأوراق وأنسجة النباتات ذاتية الاغذاء باللون الأخضر، وأعطى هذا الصبغ وغيره من الأصباغ النباتية القدرة على استقطاب وتحويل جزء من طاقة الشمس التي تغسل إلى الأرض. وهي طاقة كهرومغناطيسية لتزكيا من موجات ذات أطوال متعددة تتحرك من أشعة جاما، إلى الأشعة السينية - إلى الأشعة فوق البنفسجية - إلى الأطوال المرئية (أو أطوال البور الأبيض) - إلى الأشعة تحت الحمراء - إلى الموجات الراديوية بمختلف أطوالها.

وهناك ثمانية أنواع من هذه الأصباغ الخضراء التي تشبه في تركيبها الكيميائي حريء الهيموجلوبين (الذي يعطي لدم الإنسان ولداماء كثير من الحيوانات لونها الأحمر القاني) تماما. ليعا هذا الاستبدال ذرة الحديد المركزية في حريء الهيموجلوبين، بأذرة مغنسيوم في حريء الكلوروفيل، ويغير ذلك إلى وحدة البناء كما يشير إلى وحدة الباني سبحانه وتعالى.

وتوجد الأصباغ الخضراء مادة الكلوروفيل في داخل حبيبات دقيقة للغاية تعرف باسم البلاستيدات. ويوجد منها ثلاثة أنواع مبردة هي الخضراء والمثلوة بألوان أخرى والبهاء.

الآيات السبع من خواتيم سورة يس لنداد على قدرة الله تعالى في الخلق بتلك القدرة المذهلة التي وضعها في الشجر الأخضر ومكنه من استخدام طاقة الشمس في تثبيت ذرات الكربون المنحودة في غاز ثاني أكسيد الكربون المتكون للغلاف الغازي للأرض على هيئة مركبات عضوية تكون أهم مصادر الوقود على الأرض. حتى يمكن لكل من الإنسان والحيوان الاستفادة بها. واستخدمت الآيات هذا المثل في الاستدلال أيضا على أن الله تعالى الذي خلق هذا الكون قادر على الخلق والبناء وعلى إعادة خلقه من جديد. (أي بعد). وفي ذات لقول الآيات في ختام سورة يس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَفْسٍ لَوْلَا هُوَ خَلَقْتُمْ نَفْسًا وَغَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْجِبَابَ وَهِيَ رِيحٌ لَنْ يَحْمِلَهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوْ لَمْ يَرَهُ هُوَ يَخْلُقْ عَلِيمٌ﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ شَجَرٍ أَخْضَرٍ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَدُنْهِ﴾ ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَكُونَاتِ﴾ ﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّهِ لَرُحْمَتُونَ﴾ (يس: ٧٧-٨٣).

## حقيقة علمية مبردة

وهذه الآيات المباركات تشير إلى حقيقة علمية مبردة. وواحدة من أهم العمليات الحيوية الأساسية. ألا وهي عملية

وجود الطاقة الشمسية ومادة اليخضور ، فيفتح عن ذلك جزيء واحد من السكر وستة جزيئات من الأو كسجين .

وكما يأخذ النبات من طاقة الشمس بالقدر اللازم لنموه ، فيحوّل تلك الطاقة الضوئية الحرارية إلى عدد من الروابط الكيميائية بتفاعلها مع كل من الماء وثنائي أكسيد الكربون فيكون مختلف المواد الكربوهيدراتية (أي المكونة من الكربون والهيدروجين) التي يستخدمها النبات في بناء مختلف خلاياه وأنسجته ، ويخزن الفائض عن حاجته على هيئة النشويات البسيطة والركبة ، والسكريات المتنوعة ، فإن النبات يأخذ كذلك العديد من عناصر الأرض والماء الصاعدين مع العصارة الغذائية التي يمتصها النبات من التربة بواسطة جذوره ، وتنقل هذه العصارة الغذائية إلى كل من الساق والفروع والأوراق عبر أوعية خاصة تعرف باسم الأوعية الحشوية التي تمتد في كل ورقة من أوراق النبات على هيئة عرق وسطي له فروعاته العديدة التي تنقل تلك العصارة الغذائية إلى كل خلايا الورقة الخضراء ، حيث يعاد تشكيلها على هيئة العديد من المركبات العضوية التي يحتاجها النبات ، وتعد المركبات المصنعة في الأوراق الخضراء عبر أوعية خاصة تعرف باسم أوعية اللحاء لتقوم بتوزيعها على جميع خلايا وأنسجة النبات حسب احتياج كل واحد منها .

ومن المركبات العضوية التي تستجها النباتات الخضراء البروتينات من مثل الزيوت والدهون النباتية ، والأحماض الأمينية ، والإنزيمات ، والمهرمونات ، والفيتمينات التي تسهم في بناء مختلف الخلايا والأنسجة المتخصصة من مثل الألياف والأخشاب والزهور والثمار والبذور ، والإفرازات النباتية المتعددة كالمواد الصغية والراتنجية وغيرها .

وباستمرار عملية التمثيل الضوئي تتركز بلباين البلباين من ذرات الكربون المكونة لثاني أكسيد الكربون الجوي في داخل خلايا النباتات الخضراء خاصة الأوراق . وبذلك فإننا نجد أن

وزن المادة الحية النباتية في تزايد مستمر . ولما كان كل من الإنسان وأعداد من الأنواع في مملكة الحيوان يتغذي على المواد

ويبدأ تكون كل منها من أجزاء أبسط وأدق كثيرا في الحجم تعرف باسم «البلاستيدات الأولية» .

و«البلاستيدات» هي جسيمات متناهية الصغرة في الحجم توجد في داخل الخلايا العمادية الطولية العمودية على جدار الأوراق النباتية ، ولها حرية التحرك داخل الخلية لزيادة قدرتها على اصطاد أشعة الشمس من أية زاوية تسقط بها على ورقة الشجر . والبلاستيدات جسيمات بوضعية الشكل عادة ، يحاط كل منها بغشاءين رقيقين ، الخارجي منهما أملس ، والداخلي متعرج على هيئة ثنيات داخلية تفصلها صفائح رقيقة جداً ، وتحتوي الثنيات على الأصباغ الخضراء ، بينما تفتقر إليها الصفائح الفاصلة بينها ، وتحتوي البلاستيدات بالإضافة إلى الأصباغ النباتية على العديد من الأحماض الأمينية ، والمركبات البروتينية الأخرى كالدهون المفسفرة وغيرها .

ويقوم الصبغ الأخضر (اليخضور) في هذه «البلاستيدات» بآلقاط الطاقة القادمة من الشمس واستخدامها في تأيين الماء إلى «الأوكسجين» الذي ينطلق عبر تغور ورقة النبات إلى الغلاف الغازي للأرض ، و«الهيدروجين» الذي يتفاعل مع غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يأخذه النبات من الجو لتكوين السكريات والنشويات وغيرهما من الكربوهيدرات ، وغاز ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الغازي للأرض لا تكاد نسبته تتعدى ٣٠٪ .

### عملية التركيب الضوئي

وتتم عملية البناء الضوئي التي تقوم بها النباتات الخضراء على مرحلتين ؛ الأولى منهما تحدث في الضوء ، والثانية تحدث في الظلام . والمرحلة الضوئية يتم فيها تأيين الماء إلى مكوناته من الأوكسجين ، ونسوى ذرات الهيدروجين ، وأعداد من الإليكترونات ، وينطلق غاز الأوكسجين فيها إلى الجو . وتستخدم كل من نوى ذرات الهيدروجين والإليكترونات المطليقة في المرحلة الثانية التي تتم في الظلام والتي من نتائجها تحويل غاز ثاني أكسيد الكربون إلى السكريات والنشويات وغير ذلك من المواد الكربوهيدراتية . وعلى العكس من ذلك فإذا أحرق السكر أو أية مواد كربوهيدراتية في وجود الأوكسجين فإنه يتحول إلى ثاني أكسيد الكربون والماء ، وتطلق الطاقة ، وكأن عملية التمثيل الضوئي هي عملية تكوين السكر بخلط ستة جزيئات من الماء مع ستة جزيئات من ثاني أكسيد الكربون في



الأرض، و كل من النبات والحيوان يعطي الإنسان الغذاء والطاقة ويأخذ منه فضلاته .

### الدورة في الطبيعة وساعدة النباتات فيها

والأرض تعطي كل صور الحياة مخفف العناصر التي تحتاجها، والماء الذي يعين على إتمام كل العمليات الحيوية .  
والشمس تعطي كل هذه الصور الحياتية من نباتية وحيوانية وبشرية كل صور الطاقة التي تحتاجها ، والله يهب ذلك كله من فضله وكرمه وجوده ومنه وعفائه ويدبر صنعه وعظيم حكمته .  
فمركبات البخور تخرن الطاقة في خلايا الشجر الأخضر ، ويقامها في الخلايا الحيوانية جميعات الميتوكوندريا التي تمتص الطاقة المأخوذة من أي من النبات أو الحيوان أو منهما معا .

وعند جفاف الشجر الأخضر وغيره من النباتات الخضراء فإنها تتحول إلى أغلب مصادر الطاقة الطبيعية تقريبا ماعدا الطاقة النووية ، وطاقة الرياح ، وطاقة المد والجزر ، والطاقة الأرضية ، والطاقة الشمسية المباشرة . والطاقة في الشجر الأخضر أصلها من طاقة الشمس . فبعد جفاف النباتات الخضراء تتحول بنقاياها إلى الخشب أو القش ، أو الفحم ، أو الخشب ، أو الفحم النباتي إذا أحرق ذلك بواسطة الإنسان في معمل عن الهواء .

وإذا دفنت النقايا النباتية في البحيرات الداحسية أو في دالات الأنهار أو في المنخفضة الضحلة لساحر دفنا طبعيا فإنها تتفحم بمعزل عن الهواء متحولة إلى الفحم الحجري . وإذا زاد الضغط والحرارة عسى الفحم الحجري في باطن قشرة الأرض فإنه يتحول إلى غاز الفحم الطبيعي .

وعندما تغذى الحيوانات

النباتية ومنتجاتها ، ويستخدم تلك الطاقة الكيميائية المخزنة فيها في تكوين مركبات كيميائية أخرى تخرن أجزاء من تلك الطاقة ، وتتحول أجزاء منها إلى طاقة حرارية وحركية وكهربائية .  
ولما كان كل من الإنسان وبعض أنواع الحيوان يأكل كلا من النبات والحيوان ، فإن جزءا من طاقة الشمس ينتقل إلى هؤلاء الأكلين ، وبذلك يزداد كم المادة الحية بتكرار تلك العمليات الحياتية والتي يعيب النبات الأخضر فيها دورا أساسيا ، ويصل معدل الإنتاج السنوي من المواد العضوية النباتية إلى أكثر من أربعة آلاف تريليون طن .

وتقوم النباتات الخضراء بتثبيت أو بمعالجة ميار من الكربون المستخلص من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي في أجساد النباتات سنويا في المتوسط . وقد لعبت هذه العملية دورا مهما في تكوين بلايين الأطنان من الفحم الحجري عبر تاريخ الأرض المتحول خاصة في صخور العصر الفحمي (الكربوني) .

والمنتجات النباتية هي مصدر الطاقة الحيوية في أجساد بني الإنسان وفي أجساد الحيوانات من آكلات الأعشاب . ومن فضلات كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون جميع أنواع المخروقات ، وذلك بعد تحفيظها أو دفنها وتحميها بمعزل عن الهواء .

فالمادة العضوية في كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون أصلا من عناصر الأرض الأساسية ، والماء والأكسجين ، والنيتروجين ، وثنائي أكسيد الكربون .

والنبات الأخضر بمعيمية التمثيل الضوئي يعطي الأكسجين لكل من الإنسان والحيوان ينه في جو الأرض ، ويأخذ منهما ثاني أكسيد الكربون الذي يمتلئه إلى جو



أصلا من الغلاف الغازي للأرض بواسطة النباتات الخضراء .

كما سبق يتضح المضمون العلمي للآية الكريمة التي فهمها أهل البادية على عهد رسول الله ﷺ بالخشب أو الحطب، أو بكل من المرخ والعقارء ونفهمها اليوم في إطار كل صور الطاقة ذات الأصل العضوي من النفط والغاز المصاحب له، إلى الفحم الحجري والغازات المصاحبة له، إلى الفحم النباتي، والخشب والحطب والقش والطين وغير ذلك من الفضلات النباتية والحيوانية التي يلعب الدور الرئيسي في تكوينها الشجر الأخضر وما وهبه الله تعالى من قدرة فائقة على احتباس جزء من طاقة الشمس بعينه على تأيين الماء، ثم اقتناص ذرات الكربون من غاز ثاني



البحرية، خاصة الدقيقة منها، على النباتات الدقيقة أو على فئات النباتات الكبيرة ومتجاتها الدقيقة فإن طاقة الشمس المختزنة في تلك النباتات وفئاتها تتحول في أجساد الحيوانات إلى مواد بروتينية من الزيوت والدهون الحيوانية التي تتحلل بمزمل عن الهواء إلى النفط والغاز الطبيعي المصاحب له . وكلما زادت الحرارة والضغط على النفط المخزون في قلب قشرة الأرض تحول بالكامل إلى الغاز الطبيعي . وكل هذه المواد من مصادر الوقود الذي يحرق طلبا للطاقة الحرارية الكامنة فيه، فيتحول أو كسجين الجو مع الكربون المتجمع في تلك المصادر من مصادر الوقود محولا إياه إلى غاز ثاني أكسيد الكربون الذي ينطلق عائدا مرة أخرى إلى الغلاف الغازي للأرض .

أكسيد الكربون الموجود بنسب ضئيلة جدًا في الغلاف الغازي للأرض لا تتعدى ٠,٣٠٪، وذلك بواسطة أيون الأيدروجين الناتج عن تحلل الماء، وإطلاق الأوكسجين إلى الغلاف الغازي للأرض، وكان حركة الطاقة على الأرض، أو بالأحرى حركة الحياة تتلخص في تبادل ذرة الكربون بين النبات والحيوان والإنسان؛ يأخذها النبات من الغلاف الغازي للأرض بعملية التمثيل الضوئي ويهبها لكل من الإنسان والحيوان والأرض، ثم يطلقها كل من الإنسان والحيوان إلى الغلاف الغازي للأرض بعملية التنفس . وبين العمليتين يختزن لنا ربنا عز وجل كمًّا هائلا من مختلف مصادر الطاقة تختزن فيه ذرات الكربون التي أخذها الشجر الأخضر من الجو وأعطاه للأرض إما مباشرة أو عن طريق راقات هائلة من الفحم أو مخزونا ضخما من النفط والغاز حتى يحرقه الإنسان فيه مرة أخرى إلى الغلاف الغازي للأرض .

وبذلك فإن الطاقة التي استمدتها الشجر الأخضر من أشعة الشمس الواصلة إلى كوكب الأرض، فانتزع بها ذرة الكربون من جزيئات ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الغازي للأرض، هي نفس الطاقة التي تنطلق على هيئة اللمب الحار الناتج عن احتراق أي من مصادر الطاقة تلك في أوكسجين الغلاف الغازي للأرض (مثل الخشب، أو الحطب، أو القش أو التبن أو الفحم النباتي أو الحجري أو الغاز الفحمي أو النفط أو الغاز الطبيعي، أو غاز الميثان الناتج عن تحلل الفضلات بصفة عامة) وبذلك تتحد ذرات الكربون المختزنة في تلك المصادر المتعددة للطاقة بذرات الأوكسجين الموجودة في الغلاف الغازي للأرض لتعود إليه على هيئة جزيئات ثاني أكسيد الكربون مرة أخرى وتطلق الطاقة .

وعلى ذلك فإن عمليات الاحتراق على سطح الأرض هي عمليات أكسدة لذرات الكربون المختزنة في المواد العضوية لمختلف أشكال الوقود لتعود مرة أخرى على هيئة ثاني أكسيد الكربون الجوي كما كانت في أول الأمر؛ وهي تشبه عملية التنفس في كل من الإنسان والحيوان، حيث يستفاد بالأوكسجين الموجود في الغلاف الغازي للأرض في أكسدة ذرات الكربون الموجودة في المواد الغذائية لتتحول إلى ثاني أكسيد الكربون الذي انتزع

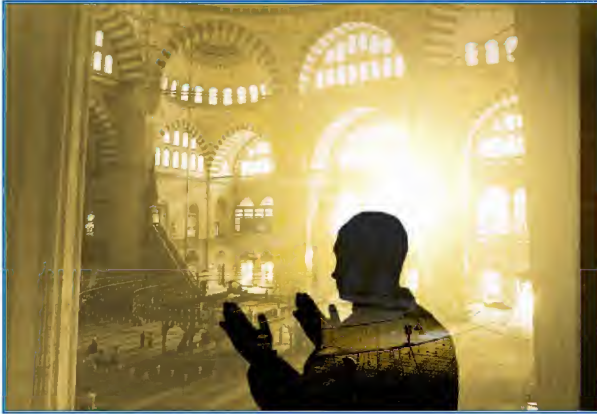
فسيحان القائل: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: ٨٠)، والقائل: ﴿فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۖ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا ۖ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ۚ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقِيمِينَ ۚ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة: ١٧ -

٤٧) .

« أستاذ علم الأرض - مصر .



# الأبعاد الروحية للصحة الإسلامية المعاصرة



د. هدى درويش \*

## ١. البعد التصوفي

والموعظة الخالصة، هم الذين صدقوا وأخلصوا فاستطاعوا بهمهمم العالية تبليغ الإسلام إلى بقاع الأرض؛ وشاهد على ذلك منطقة آسيا الوسطى والتي كان يطلق عليها بلاد «ماوراء النهر» التي دخلها الإسلام بفضل رجال التصوف الذين دخلوا إليها واختلطوا بأهلها ونشروا الإسلام بالمعاملة اللينة والأسلوب المقتنع، وكان أهل هذه البلاد من أشد المتعصبين للديانات السابقة.

كذلك تاريخ المغول الذين دخلت قبائلهم الإسلام الواحدة تلو الأخرى بفضل هداية رجال التصوف لأمرائهم حتى وصلوا إلى الصين، وواصلوا جهادهم في نشر الإسلام في العصر الحديث عندما وقعت المنطقة في قبضة الروس، فاستطاعوا حماية المنطقة من الخطر الشيوعي. وتشهد الكتابات الروسية على الدور الرئيسي الذي قام به المتصوفة في المنطقة.

ولن تكفي السطور والكتابات في حصر الأدوار التي قام بها رجال التصوف في أداء مهام رسالة الإسلام من مؤسسي الطرق ومريديها مثل الطريقة النقشبندية والقادرية والشاذلية والنسوية وغيرها الذين كانت تكايلهم رمزا للنشاط والحركة فتفتح أبوابها

التصوف هو العلم القائم على النهج القرآني والاستئناس بالسنة المحمدية، وهو أشرف العلوم وأرقاها، وهو الناج الذي تنزير به رؤوس رجاله أهل التقى السالكين إلى الله بقلوب مطمئنة ونفوس راضية مرضية وأفئدة سامية مدركة للحقيقة الإلهية.

وأهل التصوف هم المجتمع على الله همهمم الذين ليس في مواطنهم لعباد الله إلا الشغفة والرحمة، الذين لا يطلبون لأنفسهم إلا ما كتب الله لها، الذين تقوا أخلاقهم حتى ذهبت عن الباطل إلى الحق، الذين يحقون الخلق على طاعة الله ويذكرون نعمه ويشكرونه كثيرا؛ هم الهينون، اللينون، المتسامحون، العافون عند المقدرة، أعزة الأنفس، المبتذلون الخاضعون لله، المتعبدون، المبتلون، أصحاب الهمم والعزيمة والإصرار والمشاعر الرقيقة والعواطف الشفيقة، المحقون الحق الراضون للباطل، المؤتسسون بالله.

ويشهد التاريخ أن رجال التصوف هم الذين حملوا مشاعل التبليغ والإرشاد والدعوة إلى الإسلام باللين والمعاملة الحسنة



وَعَدُّوهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠). أنها تتضمن معاني استخدام الحرب والإرهاب بينما هي تعني الدعوة للاستعداد والتأهب الدائم لمنع أي اعتداء أو اغتصاب على الأرض، فتنعم البلاد جميعها بالحصانة والحماية والأمان ضد العدوان. ولكل بلد حقه في الدفاع عن أرضها وتملكاتها وسلامها وأمنها في وطنها.

### الإعلام الغربي وتشويه الإسلام

ويتخذ الغرب من وسائل الاتصال والإعلام المختلفة وسيلة هامة لترويج الأفكار المغلوطة عن الإسلام على كافة المستويات سواء الفكرية - التي يغزو بها عقول الشباب عن طريق نشر مفاهيم سياسية ودينية واقتصادية وأفكار غربية تتبع أهدافهم في تشويه صورة الإسلام وبليلة العقول غير الواعية لمبادئ الإسلام ومفاهيمه - أو الأخلاقية في محاولة لشغلهم بمواد تخرجهم عن دائرة الأخلاقيات الإسلامية، فتأخذ عقولهم وقلوبهم في مسائل لا يرضى عنها الله ورسوله يدعو للتمدن والتحضّر.

كما يسخر الغرب كل وسائله في تشويه التاريخ الإسلامي منذ عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، واستغلال الاختلافات الشككية بين الفرق الإسلامية في خدمة أغراضهم، بالإضافة إلى تدخلاتهم في حرية المرأة المسلمة وإتهامها بالسلبية والتأخر.

تلك العقبان والتحديات يجب على العالم الإسلامي التيقظ لها فيقف قلباً وقالباً في وحدة واحدة، بهدف واحد، يؤدي دوراً حيويًا في إنقاذ الوعي الصحيح بالإسلام.

### مقترحات من أجل الفهم الصحيح للإسلام

ومن أهم الوسائل لتوصيل المفاهيم الصحيحة للإسلام هي:

- توحيد كلمة العالم الإسلامي بمساعدة أجهزة كل دولة إسلامية في العمل على الرد على الادعاءات المضادة للإسلام عن طريق الأجهزة الإعلامية بأساليب حديثة متطورة تظهر الأخلاقيات الإسلامية السمحة والفضائل والقيم التي يدعو إليها الإسلام.

- التشجيع على تأسيس وحدة اقتصادية للعالم الإسلامي لمواكبة التكتلات الاقتصادية العالمية.

- بث قنوات وإذاعات ومواقع إلكترونية تشرح أسس الإسلام، وتوضح صحة المفاهيم المغلوطة لأمم العالم، وتظهر عظمة الإسلام في اعترافه بالأديان ومعاملته السمحة مع مختلف الديانات.

لأيواء المجاهدين وإطعامهم ولقيامهم بحماية البلاد من المخاطر الخارجية، إلى جانب دورهم في إصلاح البلاد والقضاء على أي ثورات داخلية. وكان مصدرهم جميعاً واحداً هو: العمل بكلام الله تعالى والسير على النهج النبوي الشريف، فأقاموا الدين وحفظوه من كل باغ وعاد.

والتصوف من حيث سلوكه هو التأدب بالخلق الإلهي، وهو التعامل السامي مع الإنسانية بمفهومها الواسع الشامل الذي لا يحده دين ولا زمان ولا مكان، وهو التوجه بقلب سليم إلى طاعة الله، وهو التسامح ونبد العدا والكراهية، وهو الحب بأوسع معانيه لبني الإنسانية. والتصوف حركة دائمة لا تعرف الخمول أو الكسل، وهو العمل والنشاط والتفاعل والاندماج في الكيان الإنساني وهو البذل والعطاء والإيثار.

هذا السلوك الصوفي وهذا الفكر وهذا التوجه الذي نجد معانيه واضحة في رجاله هو ما نطلبه في وقتنا الراهن للبرهان على عظمة الإسلام وعالميته أمام الكافة.

### ٢. الهوية الدينية ومواجهة التحديات

إن الحفاظ على الهوية الدينية للأمة الإسلامية ومسيرة التحولات العالمية تتطلب من أبنائها العمل الجاد المتواصل لمواجهة التحديات التي يعانيها المسلمون في العالم ودرء الانتهاكات التي تصوب نحو الإسلام. هذه التحديات لها وجهان أساسيان يتمثلان في العالم الخارجي الغربي وآخر داخلي، ويتمثل في بعض المسلمين الذين فهموا الإسلام فهمًا خاطئاً فأساءوا إليه دون أن يشعروا نتيجة لاختلاف طبائعهم ودرجة تدينهم؛ فمنهم المتشدد والمتعصب ومنهم الوسط المعتدل، ومنهم اللين المتسامح المعطاء. فيتطلب من هؤلاء المسلمين التوحد على قلب رجل واحد ضد كل المفاهيم المغلوطة عن الإسلام.

فما يعانيه المسلمون من الغرب هو عدم فهمهم الصحيح للمبادئ والقيم التي يرتكز عليها الإسلام. فالتشدد والعنف والقتل والعصب والكراهية والحقْد وغيرها التي يلحقها الغرب بالإسلام من خلال كلمة واحدة وهي الإرهاب صفات يمجتها الإسلام ولا يقبلها. فالإرهاب لا دين له ولا وطن ولا علاقة له بالإسلام.

كذلك تأويل كتاب الغرب آيات القرآن الكريم بشكل يرضي أهدافهم، فيفسرون قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

عن نوح بن عمر بن الخطاب له .

كذلك كانت معاملة الرهائن للقسوس ، و يظهر ذلك من خلال رسالة الرهائن المذكور إلى القسوس والتي أشهد عليها صحابه ككتب في اليوم الثالث من الحزم في السنة الثانية من الهجرة و هذه الرسالة وردت به

و هي كمن زاهد أو مبالغ مجتهد في جيل أو داء أو معدة أو معوز أو مهمل أو كريمة أو معبد فمن من دالهم وهم في دعوت ، فلا يسل أحد مباحهم ، ولا يهزم بيت من بيوت كمالهم ، ولا يفسد ، ولا يفسد ، ولا يفسد شيت منه إلى بيوت المسلمين ، ، إلى أخطأ منهم في البر والبرح والمعرف داعر و الناسل داجوت أوت كوا ، وهم في دعي و ديثك أمي من جميع ما يكرهون ، كما ورد عنه عليه السلام في هذه الرسالة قوله «لا يكلنهم أحد يسلر ، أو يلومهم بحر أو شل سلاح ، إنهم المسلمون يحاربون عنهم ، لا يجدونهم إلا على أحسن دجه ، فيجيبوا مرحومين ، ديتج عنهم ما يكرههم أو يبيع عليهم أوت كوا ، دتكرم كمالهم فلا يلعون من نصيرها أو فرجيب ، دأ أحد من الأمة يحلف هذا العهد إلى يوم القيامة ،

فك هي معاملة رهائن الله عليه السلام لليهود و النصارى ، و أن في رهائن أموة حسنة .

#### الدولة الحشائية وروح التسامح

ومن مظاهر التسامح الإسلامية التي حاررت على النهج الشرأبي و السنة النبوية أكثر فئة معاملة اللهفة العتبية لأهم

■ إمامة الرهائن و اللهفات التي يترك فيها الشعاع المشقون القدرون على الأحداث بلغة الآخر بطلاقة و التمكن من الرد على الاستفسارات المتعلقة بالتصديق يخطب قهقري على الغير .

■ العمل على نشر النك و الأبحاث البسطة و الترسمة التي نشرها الرعي الصحيح بالإسلام ، و يظهر روح الإسلام و جوهه و دونه إلى السلام ، و نشره بأسلوب و التبع الفسولي الأجتماعية و الاقتصادية و السياسية و العلمية التي بحث عليها الإسلام .

■ إبراز دور المرأة المسلمة العالمي و الإيجابي في مختلف مجالات العمل و الحياة مع احتفاظها بأختلافها و سلوكها القويم و عدم فرجها ، و تلك السلوكيات للمرأة قدس به كافة الأديان .

■ أهمية روح دعاة على مستوى عال من النهضة و المسؤولية في حمل الأمة في دليق الشعاع و بخلق الوعي و التجميع و التبراهين القوية النبوية ، و يهودون روح النصر ، و على مستوى عال من الثقة النبوية المنظمة لكافة الأديان و يحتلون بلعهم بأسلوب هدي و داصح لا يفسد فيه انصب أو انحرز .

#### دعاة غير قليلين

و الواجب على هؤلاء الشعاع أن يكرهوا دعاة غير قليلين يحصلون لعلم الفكر الإسلامي في ثوب عصري ، يعمل مع الآخر بشقة عتبية ، و يشهد الأدلة و التبراهين بروح عصرية جليدة ، فيصبحوا سفراء للإسلام يؤزرون بكلماتهم و عظمتهم و التراجع و عقليتهم النضجة .

و مهمة هؤلاء الشعاع هو إبراز جوه الإسلام العتيق التي يؤمن بالرسالات التسمدية جليل ، و ذلك بواسطة إنشاء التسامح الإسلامي مع الأديان و التبرهنة عليه ببعض الأحداث الإسلامية ، و منها معاملة رهائن الله عليه السلام لليهود و د مثل ذلك كجدة في مسنة اليهودي التي كان يصبح الأكلان أمام بيت رهائن الله عليه السلام كل يوم ، و عتلتهم بيتك الرهائن الأكلان أمام بيتك كعقد مسان عته معلم أنه مريض ، فعدد الرهائن يظلمن عليه .

كذلك قصة اليهودي الساني أسد إلى رهائن الله عليه السلام لأحد دين عليه قدم عمر بن الخطب بتمعه عن رهائن الله عليه السلام ، فعنه الرهائن دأمر أن يبيع اليهودي أكثر مما له من دين فربط



الديانات. تلك الدولة التي وصلت بالإسلام إلى مشارف فيينا في أوروبا، كيف كانت معاملتها مع أهل الكتاب من نصارى وكاثوليك وأرثوذكس ويهود وغيرهم ببساطة وعدل لم يسبق مثيلها لأي دولة أخرى القيام به بشهادة الغرب والكتاب والمؤرخين الغربيين.

ومثال على ذلك السلطان محمد الفاتح الذي أدهش العالم الغربي بمعاملته واحترامه لأهل الديانات غير المسلمة بالعدل والرحمة والإكرام. إنها البساطة التي ضربت الأمثلة في كيفية معاملة الإسلام للأديان الأخرى.

■ تشجيع مراكز البحوث في العالم الإسلامي على نشر الكتابات التي تشرح أخلاقيات الإسلام مع عامة البشر، وسرد معاملة الرسول الكريم مع أهل الملل الأخرى، وصفاته الحميدة في معاشرته لأهله وأصحابه والناس جميعاً، وعظيم تسامحه في معاملة الآخر.

■ قيام المفسرين والعلماء المسلمين والهيئات العلمية الإسلامية بإفراد مؤلفات خاصة تشرح الآيات القرآنية والسنة النبوية والأحداث الإسلامية التي حاول الغرب تشويه مفهوماها وتلك التي تحدثت عن القيم الإنسانية النبيلة في الإسلام.

■ العمل على إشاعة الحب بين البشر، فرسالة الإسلام هي الحب والسلام.

■ نشر التاريخ الإسلامي الصحيح وحياة الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله وأحواله وسير الصحابة الأجلاء والتابعين والسلف الصالح وسير علماء الإسلام الذين لهم إسهاماتهم في الدعوة الصحيحة.

■ الاقتداء بأفعال وأحوال ومعاملات أهل الطرق الصحيحة الواعية الذين يهبون حياتهم للعلم والعمل؛ وهم على اختلاف مسمياتهم مصدرهم واحد وثابت، فالكل من رسول الله ﷺ، وطريقهم القرآن يسبرون مع الله وبالله والله.

تلك هي بعض الوسائل التي يمكن اتخاذها من أجل توضيح مبادئ وأخلاقيات الإسلام الشامل العالمي.

### رسالة الإسلام العالمية

وعلى الرغم من محاولات الكثير من الدعاة والرجال الذين حملوا على عاتقهم هموم العالم الإسلامي، إلا أنه لا يزال التقصير سائداً في عدم تبليغ الإسلام بمفهومه السليم إلى العالم أجمع؛ ولا يزال كثير من الشعوب لم يصل إليها مفهوم الإسلام

الصحيح على الرغم من أخذ العهد على كافة المسلمين من رسول الله ﷺ بتبليغ رسالة الإسلام، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَأَنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَّرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة: ٦).

إن تبليغ رسالة الإسلام العالمية مهمة عظيمة تقع على عاتق حاملي رايات النهضة والتوير التي يغفل عنها الكثير. وقد قام كثيرون منهم على مدار التاريخ في إظهار عزة الإسلام مثل «الإمام شامل» الذي استطاع أن يضرب لنا مثال القائد الصوفي الذي قهر الروس وقت احتلالهم للشيشان، والإمام المجاهد «نصر الله الطرازي التركستاني» الذي استطاع بكتابات وقلمه إظهار الدعوة الإسلامية الحققة.

والعالم الإسلامي الآن في حاجة ماسة إلى الدعاة المجددين لنشر الفكر الإسلامي الصحيح وتعميمه. ولا ننسى في هذا المضمار الأعمال الجليلة التي قدمها رجال الدعوة الإسلامية المجددون أمثال الإمام «سعيد النورسي» والإمام «سليمان حلمي»، ودعوة الإمام المجدد «فتح الله كولن» التي تعد نموذجاً للدعوة الإسلامية التجديدية المعاصرة.

والإسلام في حاجة لإبراز دور المنصوفة على مدار التاريخ وإزاحة كل ما يشوب التصوف من بدع أو انحراف أو اتهام بالخنوع أو الخضوع أو التراخي؛ فالتصوف الصحيح هو سلوك أخلاقي حركي فعال يوصح إلى طريق الله؛ وعبر التاريخ أثبت التصوف الدور الإيجابي في الحفاظ على الهوية الإسلامية. ■

«جامعة الفازيق، معهد الدراسات الآسيوية - مصر.

### المصادر:

- السيد محمود أبو الفيض، نهضة الإسلام، مطبعة حجازي، القاهرة/ ١٩٤٩م.
- هدى درويش، بحث دور جامعة المستقبل في توجيه خطاب ديني موحد، المؤتمر السنوي العاشر لمركز تطوير التعليم الجامعي، جامعة عين شمس، ٢٧-٢٨ ديسمبر ٢٠٠٣م.
- هدى درويش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، عين للدراسات والبحوث، القاهرة/ ٢٠٠٤م.
- هدى درويش، الحجاب بين الأديان والعلمانية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة/ ٢٠٠٥م.
- مجلة لواء الإسلام، مؤسسها السيد محمود أبو الفيض المنوفي، العدد الأول، مصر، ٣ يوليو ١٩٦٤م، ص ١٦، ١٧.

# المنقذ المرتقب

نجيب فاضل\*

سيرفع هذا المنقذ ذراعيه صارخاً: «لا.. لا» في وجه الجمود والتأخر، وفي وجه التقليد الغربي الذي بدأ منذ عهد «المنظيمات» ووصل إلى ذروته في عهد «الجمهورية». سيقول: «لا.. لا» في وجه إنكار واحتقار قومائنا وشخصيتنا، وتسليم هذه الشخصية إلى الغرب بتقليد سطحي يتناول مظاهر الأشياء.

سيرفع هذا المنقذ العالم الغربي بكل جوانبه وبكل أزماته أفضل من أي مفكر غربي، ويعرف العالم الشرقي بكل نقاط ضعفه وكل قواد الخفية، ويعرف السر الموزون والمحسوب بين هذين العالمين ويرفعه في يده كشعلة وهاجة.

سيقدم هذا المنقذ إلى هذه الأمة المقياس الذي تستطيع بواسطته تمييز الأبطال الزائفين الذين ظهروا في عهود الجمود والتأخر والانحطاط عن الأبطال الحقيقيين، ويكشف بذلك خداع ونفاق الذين قدموا الزائف في صورة الحقيقي.

سيبحث هذا المنقذ وسيدافع عن حقوق الإيمان والأخلاق والتاريخ، وعن حقوق مؤسسات الأمة، وسيرسي قواعد البيت والعائلة، وعلاقات وحقوق الرجل والمرأة والطفل، والمدرسة والمزرعة والمصنع، والدولة وكرسي العدالة والجيش على قواعدها الأصلية الحقيقية.

سيُظهر هذا المنقذ في أجلى صورة ما فقدته الذين انقلب المفاهيم عندهم في «التقديمية»، وما خفي عنهم في «الرجعية». سيرتفع هذا المنقذ بالروح، وسيجمل ويزين المادة تحت إمرة الروح.


سيعمل بكل قوة أن ما يبحث عنه هو في الإسلام، ولن يأخذ عن الغرب غير العلوم والمعارف المجردة، وغير حق العقل في فحص المادة وتدقيقها؛ وبذلك يقدم أحسن أنموذج يشناق إليه القرن العشرون. وبكلمة واحدة فإن هذا المنقذ سيكون المثل الحقيقي للإسلام بكل ما فيه من أصالة وصفاء اليوم وغدا.

وبنسبة مأساة وسفالة انحطاطنا ستكون نسبة ارتفاعنا وصعودنا على يد هذا المنقذ البطل.

حسب السنن الإلهية وقوانينها..

لا بد أن يأتي هذا البطل..

بما أن هذه الأمة ستبقى..

إذن فهو آت لا محالة. 

\*) من كبار شعراء ومفكري تركيا. لُقّب ب«سلطان الشعراء» توفي سنة ١٩٨٣م. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.

لا أدري أين هو الآن... في صلب أي رجل... في رحم أي امرأة... على كرسي أي دائرة... في صف أي مدرسة ابتدائية أو متوسطة أو عالية... على رأس أي فوج، أي سرية، أي فصيل... في أي زاوية هادئة من زوايا أي مسجد... في أي ركن هادئ من أي مكتبة... أين هو... أين؟ لا أدري.

أبأني عن طريق الانتخاب... أ يظهر وهو يقود الجماهير... أم يصل بواسطة منظمة جديدة؟... أيقفز من المظلة أم ينزل من صحن طائر؟... كيف يأتي؟... كيف؟... لا أدري.

أ يكون سلاحه القلم أم السيف؟... إبرة التطعيم أم قينة الدواء؟... ما هو سلاحه؟... ما هو؟... لا أدري... ولكن الذي أؤمن به كإيديولوجية رياضية هو أن هذه الأمة ذات التاريخ العريق منذ آلاف السنين والتي وجدت أعلى شرفها وعزتها في الإسلام تنتظر وتبحث عن البطل الذي يجدد لها إيمانها وأشواقها؛ وإنها ستجد ما تبحث عنه بلا شك ودون ريب.

أجل! إن الشيء الذي أعلمه هو أن هذا الوطن بجماذه ونباته وحيوانه وإنسانه... هذا الوطن بأجمعه ينتظر منقذه مثلما تنتظر السنبلة الملوحة بالشمس قطرات الماء... مثلما ينتظر المريض الدواء... مثلما ينتظر البريء العدالة... مثلما ينتظر العاشق الموله معشوقته... هكذا تنتظر هذه الأمة منقذها.

إن هذا انتظار من نوع آخر، بحيث حتى إن لم يكن هناك من يأتي، ولو لم يكن هناك من يتوقع مجيئه فإن هذا الانتظار من القوة بحيث يعطي له وجودا... يولده وينشئه ويريه ويفسقه. أجل! نحن نتظر هذا البطل... هذا البطل الذي سنشكله في رحم أمه شدة رغبتنا ولهفة انتظارنا له.

وبخلاف تيار السطحية والتعصب وجفاف القلب والروح، وجفاف الشوق والوجد سيدافع هذا البطل عن معاني وعن روح المفايس المقدسة بجميع جبهاتها ومفاهيمها الظاهرة منها والباطنة.

رجل العلم الحقّ هو الذي يجمع بين أصدق ما نزل من السماء وأصدق ما على الأرض، فيورثه ذلك تمام الإطمئنان. أما النفوس الخرومة التي ترى بعين واحدة، فسرعان ما تغير طريقها وتبدّل وجهتها وتقضي عمرها في إطلاق الحسرات والأين لأنها تبقى حبيسة أوهام النظرة الواحدة.



الكون في قلب ذرة:

# الهولوغرام

د. زينب جواني أونالان \*

الرئيسية وراء ذلك هي ضوء الليزر. هيا ترى كيف نحصل على هولوغرام زهرة؟ لكي نحقق ذلك يجب فصل شعاع الليزر إلى شعاعين عن طريق فاصل للأشعة، ثم يسقط أحد الشعاعين مباشرة على فيلم حساس للضوء، بينما ينعكس الشعاع الآخر من الزهرة ثم يسقط على نفس الفيلم، وعندما يتداخل هذان الشعاعان سوف يشكلان نمطاً متداخلاً على الفيلم وهو ما يسمى بـ«الهولوغرام». وهذا النمط -الذي يشبه التمجّجات التي تشكلها قطرات المطر على بركة من الماء- من الممكن رؤيته فور تضيئ الفيلم، وتظهر صورة ثلاثية الأبعاد للزهرة بمجرد أن يُضاء الهولوغرام بضوء ليزر آخر، وذلك لأن الرسالة الكلية لجميع الجوانب البصرية للزهرة ملفوفة على سطح الفيلم ثنائي الأبعاد، وما يحدث في الحقيقة هو إظهار معلومات الزهرة كما هي مخزنة في النمط المتداخل.

إن السمة العجيبة هي أننا إذا قمنا بقطع الهولوغرام نصفين ثم قمنا بإضاءة إحدى القطعتين بالليزر، فإننا سنظّل قادرين على إخراج الصورة الكاملة. وحتى إذا ظللنا نقوم بتقطيع الفيلم إلى قطع أصغر وأصغر فإن كل قطعة أخرى سوف تظل تمتلك جميع المعلومات الخاصة بالزهرة. وبالإضافة إلى هذا يمكننا أن نرى الجوانب المختلفة من الزهرة عندما ننظر إلى صورتها من زوايا مختلفة، حيث يعطينا هذا وهماً مقنعاً لرؤية شيء ثلاثي الأبعاد.

لما هو الكون؟ كان البحث عن إجابة هذا السؤال الأساسي بمثابة نقطة ابتداء للفلسفة والعلوم، غير أن المؤمنين بلجأون للدين بحثاً عن إجابة نهائية. وقد نظر معظم المفكرين المسلمين إلى أسماء الله الحسنى باعتبارها الأشياء الأولية التي ينبغي إدراكها، والتي نستطيع من خلالها اكتساب معرفة الكون. وعلاوة على ذلك هناك أعداد متزايدة من الناس يشيرون إلى الكون باعتبار أنه هولوغرام يقدم لنا صوراً للحقيقة أعلى. وأول سؤال يتبادر إلى الأذهان هو: هل يمكن لتجليات أسماء الله -كما توضحه النصوص الصوفية- أن تكون مؤبداً لفكرة الكون الهولوغرافي؟

غير أن هذا المقال لا يهدف إلى الإجابة على هذا السؤال بل يهدف إلى توضيح أن النموذج الهولوغرافي للكون قد بغذى تخيلاتنا بالشكل الذي يساعدنا على تصور تجلي أسماء الله في كل شيء. ولهذا الغرض فسوف نركز أولاً على الخصائص الرئيسية للهولوغرام، كما سنكشف ماذا نعني بكون هولوغرافي، ثم سنستخدم هذه الاستعارات في فهم الكون في علاقته بأسماء الله الحسنى.

## ما هو الهولوغرام؟

الهولوغرافيا هي أسلوب تصوير يشبه الفوتوغرافيا كثيراً، إلا أن صورة الشيء تكون ثلاثية الأبعاد في الهولوغرافيا، والأداة



## الكون الهولوجرافي

بريرام» المتخصص في علم وظائف الأعصاب. وقد كان بريرام يحاول التوصل إلى المواقع الخفية في المخ التي تقوم بتخزين ذاكرتنا، وقد كشفت تجاربه أنه لا توجد مركزية في هذا الأمر. ويزعم بريرام أن النموذج الذي يشكله تداعل الإشارات الكهربائية من كل خلية عصبية في المخ هو، في الحقيقة، المكان الذي يتم فيه «تخزين» الذاكرة.

### تجليات الأسماء الإلهية والهولوجرام

وصف العديد من المفكرين المسلمين، من الغزالي إلى ابن عربي، الله - عز وجل - بأنه «النور»، كما عبروا عن كل الكيانات في الكون باعتبارها تجليات لهذا النور. ويؤكد القرآن هذا التدخل في آيات عديدة من أشهرها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥). ومع هذا وبما أن الله - سبحانه وتعالى - ليس له مثل ولا شبهة بين مخلوقاته، فإن هذا النوع من الوصف لا ينبغي أن يُعتبر تشبيها بالنور الذي نعرفه، ولكن ينبغي فهمه باعتباره استعارة. ورمزية النور تُستخدم بشكل أساسي لشرح العلاقة بين الله - تعالى - وبين المخلوقات، ولكن ينبغي على المرء أولاً أن يكون لديه علم عن الأسماء الحسنى لكي يفهم هذه العلاقة.

إن الآيات في القرآن بوجه عام تنتهي بذكر لبعض الأسماء الحسنى: المحيي، المميت، الغفور، المقيت، العليم، الخالق، وغيرها. ونحن ندعو الله عز وجل باسم الخالق - مثلاً - بعد أن شهدنا آثار هذا الاسم في الخلق؛ كما أننا نشهد رحمته سبحانه بالخلق، ولهذا فنحن ندعوه «الرحيم». وكل شيء من الكائنات الطبيعية إلى العلوم يبرهن على أسماء الله تعالى بطريقة أو بآخرى؛ فكل أنواع السمع ناشئة من كونه «السميع»، سبحانه وتعالى؛ واسمه «العليل» يُظهر في الطريقة التي وضعت فيها الكواكب في مداراتها؛ بينما يمكننا أن نرى اسمه «المقيت» في الطريقة التي يقيت فيها سبحانه كل حيوان وكائن؛ ويعكس الطب اسمه «الشافئ»، بينما تعكس الهندسة اسمه «المقدر».

وفي شرحه لتجليات أسماء الله تعالى أعطى بدیع الزمان سعيد النورسي مثلاً بالشمس وضوئها في كلمته السادسة عشرة، حيث شبه النور القادم من الشمس - والله المثل الأعلى - بنور الله تعالى وصفاتها بصفات الله عز وجل. فمثلاً يمكننا أن نمثل حرارة الضوء الأبيض بقوة الله تعالى، وأن نمثل سطوعه بعلم الله، عز وجل. وعندما تعكس الشمس، على مرآة مثلاً، فإن

إن فكرة أن الكون يمكن أن يكون هولوجراماً جاءت من حقيقة أنه ليست أمواج الضوء فقط تستطيع أن تعرض سلوك التداعل، ولكن أمواج المادة أيضاً تستطيع هذا. وقد ظهر مستوى أعمق من تفسير الكون الهولوجرافي من خلال النماذج النظرية التي تحاول أن تشرح الفعل المتناسق للقوى الأساسية الأربعة في الطبيعة. وهذه النظريات تقترح أحد عشر بُعداً من الزمكان (المكان-الزمن)، والذي يظهر عملياً رباعي الأبعاد على المستوى البشري؛ وهذا يمكن، بطريقة ما، أن يشير إلى أن معلومات الحقيقة في أحد عشر بُعداً يتم إسقاطها على أسس الزمكان الذي نعيش فيه. ومع هذا فإنه بمساعدة «المبدأ الهولوجرافي» الذي قال به (جيرارد هوفت) تظهر الطبيعة الهولوجرافية لكل النظم الفيزيائية؛ حيث إن هذا المبدأ يشرح كيف يمكن وصف نظام فيزيائي ثلاثي الأبعاد بواسطة نظرية مبنية على منطقة ذات سطح ثنائي الأبعاد. وبهذا فإن فكرة «الكون الهولوجرافي» خرجت إلى النور بمجرد أن تم تطبيق هذا المبدأ على الكون، وهو أكبر نظام فيزيائي نعرفه.

ومع النموذج الهولوجرافي للكون يأتي إدراك أن كل نقطة في الكون تحتوي على الكون بأكمله في ذاتها، وكل حبة رمل ترتبط بكل كوكب في الكون، تماماً كما تتضمن الجزيئات الأصغر من الذرة شبكة من الترابطات تصبح بها متشابكة مع الخلية البشرية. و«ديفيد بوم» هو أحد علماء القرن العشرين المعروفين بإدراك هذه الكلية في الطبيعة. وقد جاء تفسير «بوم» للكون كهولوجرام في شرحه لتجربة عام ١٩٨٢ قام بها «ألين أسبيكت» وفريقه، والتي كشفت مدى سرعة تواصل الجزيئات الأصغر من الذرة مع بعضها البعض. وفي الحقيقة أنه قد اكتُشف أن هذا الاتصال سريع للغاية، وأنه أسرع حتى من سرعة الضوء، كما لو كانت الجزيئات «تعرف مصائر بعضها». وقد أشار بوم إلى أن الجزيئات ليست في حاجة إلى أية إشارة من أجل التواصل مع بعضها، هذا ببساطة لأن الانفصال بينها هو مجرد وهم. والانفصال الظاهر هو تصور من مستوى أعلى للحقيقة، وهو ما يسميه النظام المضمن، حيث كل شيء مرتبط، وتتصرف الجزيئة كما لو كانت تعرف مصير الجزيئة الأخرى؛ وذلك لأن لديها المعلومات الخاصة بالجزيئة الأخرى داخلها.

وثمة عالم آخر رأى أن الهولوجرافيا فعالة ومؤثرة وهو «كارل

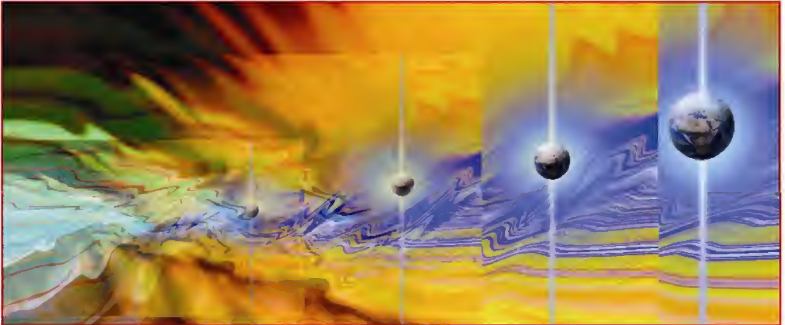
الموجودة مثلما ينتج الهولوغرام عن تداخل ضوء الليزر . وهذا القياس يتسق مع النصوص الصوفية التي تقوم بالتمييز بين أسماء الله تعالى وصفاته . ويؤكد الإمام الرباني السرهندي ، وهو عالم مشهور ، على هذا التمييز في مكوّناته؛ فالصفات الإلهية (مثل الوجود ، والقيّد ، والبقاء ، ومخالفة تعالى للحوادث ، وقيامه بذاته ، والحياة ، والعلم ، والقوة ، والكلام ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والخلق) هي صفات لا يمكن أن تنفصل عن ذات الله عز وجل . وعندما يتجلى الله تعالى ، فإن آثار الصفات العليا تظهره ، ونسمّي هذه الآثار «الأسماء الحسنى» ، وهذا يعني ، باختصار ، أن الصفات هي مصدر الأسماء ، كما أن الضوء هو مصدر التداخل .

وبالإضافة إلى هذا ، ومع قياس الزمكان على الهولوغرام ، فإذا قمنا بقطع الزمكان إلى عدد لانهاثي من القطع ، فإن الكون بأكمله سوف يكون حاضرا في كل موقع . ويُعبّر «محمود سيستري» بشكل تام عن هذا التوصل والوحدة في كل الخلق في قصيدته «كولشن راز» (حديقة الزهرة الصوفية) حيث يقول:

اعلم أن العالم مرآة من رأسه إلى قدميه ،  
ففي كل ذرة مئة شمس مستعرة ،  
وإذا شققت قلب حبة ماء واحدة ،  
سيخرج منها مئة محيط نقي المياه ،  
وإن فقتش في كل حبة رمل ،  
ربما رأيت ألف آدم في قلبها ،  
والبعوضة في هذا العالم مثل الفيل ،  
وقطرة المطر تصبح في منزلة النيل . . .

حرارتها وسطوعها موجودان أيضا بالإضافة إلى صورتها . وبالمثل -ولله المثل الأعلى- فإن الله عز وجل يتجلى في كل الكائنات بكل صفاته سبحانه ، ومع هذا فإن هناك درجات لهذا التجلي ، وهو ما يعتمد على قدرات الكائن ومنزله . وبمكنا أن نستخدم القياس على الضوء لنرى كيف يمكن أن تعطي المنازل المختلفة ظهورا مختلفا؛ فالمرآة المسطحة لديها القدرة على إنتاج صورة الكائن بحجمه وشكله الطبيعي ، بينما يمكن أن تتسبب المرايا في أماكن التسلية والمرح في إحداث تشوهات تعتمد على درجة الانحناء . وفي التصوف يتم تقديم حقيقة أن الأسماء الحسنى متعددة وأنها تتجلى بدرجات مختلفة باعتبارها السبب وراء التنوع في الكون وفي البشر . وبهذا فإن البشر ، الذين خلّقوا ولديهم أكثر القدرات تعقيدا ، يحتلون المرتبة العليا في هذا التدرج؛ بينما يُعتبر القلب ، وهو القدرة الأكثر دقة في الإنسان ، هو مركز هذا التجلي .

وباستخدام القياس على الضوء مرة أخرى ، وباستخدام الاستعارة الخاصة بالهولوغرام ، يمكننا بشكل أفضل أن نتصور العلاقة بين الله والكون وفكرة تدرج تجلياته سبحانه . وفي هذا القياس الذي تقدمه -ولله المثل الأعلى- يمثل ضوء الليزر صفات الله تعالى ، ويمثل (فيلم) الهولوغرام الزمكان رباعي الأبعاد ، في حين أن نموذج التداخل يقابل التداخل مع أسماء الله عز وجل . وبهذا فإن كل شيء في الكون يمكن أن يُنظر إليه كنموذج لتجلي أسماء الله الحسنى مغطى خلال المكان والزمان . والنتيجة التي يمكن أن نخرج بها هي أن الأسماء الحسنى في الحقيقة تمثل أثرا لهذا التداخل ، مثلما هو الحال مع ضوءين متداخلين . وصفات الله تعالى - ولله المثل الأعلى - هي التي ينتج عنها كل الأشياء



إن قلب حبة الشعير قد يساوي حصاد المئات ،

فالعالم يسكن في قلب حبة من ذرة ،

وعلى جناح بعوضة يرقد بحر الحياة ،

وفي سواد العين تجد سماة ممتدة . . .

### الهولوجرام والكشف الروحي

وفي الحقيقة أن التشبيه الخاص بالهولوجرام يمكن أن يساعدنا على إدراك الكشف الروحي؛ فمذاهج التداخل الناشئة عن كائنات مختلفة يمكن أن يتم تسجيلها على نفس الفيلم، من خلال إسقاط أشعة الليزر على زوايا مختلفة ومتغيرة. وفي هذه الحالة سوف تظهر صورة مختلفة ثلاثية الأبعاد، وهذا بناء على اتجاه وتردد الشعاع الذي نرسله من خلال الفيلم. وثمة نقطتان للتأكيد وهما أن استخدام ضوء الليزر ضروري لرؤية أعلى فيما يتعلق بالأبعاد، وأن المرء يستطيع أن يرى حقائق مختلفة.

وبطريقة مشابهة يحتاج السالك في رحلته الروحية إلى أن يكون لديه إشراف من نور الله ليكون قادراً على رؤية أبعاد أخرى. ومع نور الله تعالى يحدث الكشف الروحي وربما يرى السالك حالات مختلفة من الواقع، وهذا يبني على مدى معرفته لله وقربه منه، وأي من الأسماء الحسنى يقوم بتأمله أو ذكره، وغير ذلك. وبهذا فإن المعلومات المعقدة التي تقول بأن كل عنصر في العالم يمكن أن يكشف عن كل كائن آخر، تعتمد على حقيقة أن أسماء الله الحسنى تدل على بعضها البعض. ويمكننا بالإضافة إلى هذا أن نستخدم فكرة التداخل لوصف مفهوم التدرج في تجلي أسماء الله تعالى. وفي نموذج التداخل لا يكون لكل النقاط نفس السطوع، وتعتمد درجة السطوع على موقع كل من الضوءين وطريقة تداخلهما، حتى أنه توجد نقاط لا يمكن ملاحظة أي ضوء عليها. ومع ذلك فإن هذا لا يعني أنه لا يوجد ضوء هناك، ولكنه ببساطة لا يمكن رؤيته لأسباب مختلفة.

ولإيقاف هذا الحبل من الأفكار ينبغي علينا أن نجد إجابة لسؤال غامض وهو: إذا جاء كل شيء في الزمكان رايعي الأبعاد إلى الوجود بمجرد إسقاط حقيقة أعلى بواسطة نور الله على فراغ الظلام، فما هي إذن تلك الحقيقة الأعلى متعددة الأبعاد؟ إنها الحقيقة التي يمكن أن يشهدها فقط أولئك الذين يرون ما وراء ظاهر الأشياء، هؤلاء الذين يحرقون أنفسهم من الدنيا المادية والشهوات الجسدية. إن هذا في النهاية سؤال لا يستطيع أن يجيب عليه إلا هؤلاء الذين طهروا قلوبهم ويستطيعون أن يروا ما وراء الأشياء. ❏

إن هذه الطريقة في النظر إلى كل الأشياء ربما تقود إلى الإيمان بوحدة الوجود، وهو ما ينتج عنه إنكار وجود العالم؛ بسبب الاعتقاد بأن الشيء الوحيد الموجود هو الله. وثمة ملاحظة ضرورية في هذه القطعة، وهي أن هذا ربما يبدو أشبه بمذهب الحلولية، ولكن هناك تمييز حاسم وهو أن ما يتم إنكاره في مذهب الحلول هو الله وليس العالم. وفي الواقع أن العديد من الناس، في محاولتهم لدمج منظور الكون الهولوجرافي بالتصوف، يتبنون الاعتقاد الصوفي في «هه مه أوست»، وهو اسم آخر لوحدة الوجود، ويعني أن «الكل هو».

ولكن الاستعارة الهولوجرافية، كما قدمناها آنفاً، ربما تساعد أكثر في محاولتنا لفهم توحيد الله عز وجل، دون إنكار العالم. فالاعتقاد بأن كل الكائنات هي أثر لتداخل أسماء الله تعالى هو اعتقاد يتسق مع الإيمان بأن كل كيان هو مرآة للتجليات الإلهية. ومع ذلك فينبغي أن نلاحظ أننا فرقنا بين الأسماء الحسنى والصفات العليا، وكل مخلوق يظل في الوجود من خلال أسماء الله تعالى؛ فأسماء الله هي الحاضرة في كل بقعة من هذا الكون، وهو سبحانه مصدر هذا الكون. إن الله تعالى باقٍ، بينما الكون ينتهي وجوده بمجرد انقطاع اتصاله بالله تعالى، ويشار إلى وجهة النظر هذه في التصوف بـ«هه مه أز أوست»، والتي تعني «الكل منه». وفي وجهة النظر هذه لا يجري إنكار وجود العالم، ولكن يمكن التساؤل حول مستوى هذا الوجود. فإذا تم تعريف الوجود الحقيقي باعتباره الوجود المطلق لله تعالى فإن الكون ليس له وجود حقيقي، ولكنه لا يزال في شكل من الوجود المؤقت والطارئ. ويشرح المفكرون الإسلاميون هذا التحدي الوجودي من خلال ضرب أمثلة بالظلال، فالعلاقة بين الخلق والخالق تشبه تلك العلاقة بين الظل والشكل الحقيقي؛ وبالتالي فإن التشبيه الذي رأيناه في الظل وفي الهولوجرام هو تشبيه يمكن منه أن نبني فكرة عامة عن تجلي أسماء الله الحسنى، علماً بأنه سبحانه ليس محدوداً بهذه الأبعاد.

«جامعة ميشيغن - الولايات المتحدة. الترجمة عن الأكليري: بهاء الدين إبراهيم نعمة الله»

## الأثر والإنسان...!

كثيرٌ همُ الراحلون كُلَّ يومٍ،  
وقليلة هي آثارهم الباقيات بعد الرحيل،  
منذ أزمان سحيقة،  
رُسِمَ على الأرض آثار خطوات،  
استعصت على رياح الزمن،  
فما اندرس رسمها،  
وما انمَحَتْ.

التاركون على الأرض ظلالهم،  
الراسمون على الأرض آثارهم،  
كم من سالكٍ سلكها دون مَشَقَّة،  
وكم من عابر طريق مرَّ فوقها بسلام.  
أما المسالك الملتوية،  
والآثار المعوجة،

ذات الفجاج الضيقة،  
كم أضَلَّتْ من سالك،  
وكم أهْلَكْتُ من عابر...  
وكم على الطريق من آثار،  
عليها فأسكبُ العبرات،  
ويترابها فمرغٌ وجهك،  
لأنها معلَّمُ هداية،  
وآثار سلامة...

أيها المسافر إلى بعيد،  
أيها الماضي من قريب،  
تُرى أيَّ نوع من الآثار،  
ستترك بعدك...؟



الغاية من العلم اتخاذه مرشدا وهاديا لتنوير طرق ارتقاء الفرد نحو الكمالات الإنسانية. فالعلوم التي لا تلتفت إلى الجانب الروحي للإنسان تكون عبئا على صاحبها. وكل معرفة لا تأخذ بيد الإنسان نحو الأهداف السامية ليست إلا عبئا على القلب والفكر لا تجدي نفعا.

## ثلاثة أجيال أمام المحكمة

أورخان محمد علي\*

كانت طرابلس الغرب وبنغازي قد احتلتا من قبل إيطاليا، وكانت الدولة العثمانية في ضائقة مالية وعسكرية كبيرة، وهي تعاني من سيطرة حزب الاتحاد والترقي عليها بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩م. لم تكن الدولة العثمانية قادرة على مواجهة إيطاليا عندما قامت في ١٩١١م بغزو ليبيا فجأة ودون سابق إنذار. كل ما كانت تستطيعه هو إرسال بعض المجاهدين لمساعدة إخوانهم الليبيين. لم يتردد هؤلاء المجاهدون الثلاثة... الجد والابن والحفيد... تقدموا وسجلوا أنفسهم في المجموعة الفدائية التي أطلق عليها اسم «الضباط الفدائيون». وعلى الرغم من جميع الشروط والظروف القاسية، ومن قلة العدد، وقلة الأسلحة والمعدات، وقلة التمويل، وطول الطريق، فقد وصلوا سرا إلى ليبيا حيث التقوا رؤساء العشائر وأشرف البلد وبدأوا بتدريب البدو وأبناء العشائر على فن القتال. لم يكونوا يملكون أسلحة ثقيلة، لا مدافع ولا دبابات ولا رشاشات، بل مجرد بضعة مئات من البنادق القديمة. كان عدد الضباط العثمانيين وكذلك المتطوعين من أفراد العشائر الليبية قليلا، وكان مطلوبوا منهم القتال ضد جيش إيطالي مجهز بالأسلحة الثقيلة وبالطائرات، ويفوقهم بعشرات بل بمئات المرات في العدد والعدة. كانوا يعتمدون في الحصول على

لألقى رئيس المحكمة الإيطالي كارو تورللي نظرة ثاقبة على المتهمين الثلاثة المائلين أمامه، شيخ وكهل وشاب في مقتبل العمر، كانوا يمثلون أجيالا ثلاثة متعاقبة. والغريب أنهم كانوا من عائلة عثمانية واحدة... كان الشيخ هو الجد والكهل ابنه والشاب حفيده.

كانوا آتين من مكان بعيد بعيد... من وراء آلاف الكيلومترات... من الأناضول إلى بنغازي في ليبيا. ما الذي دفعهم ليقطعوا كل هذه المسافة ليصلوا خفية إلى ليبيا؟! لم يكن رئيس المحكمة يجهل سبب مجيئهم... إنه داعي الجهاد الذي لا يزال المسلمون متمسكين به... داعي الجهاد هذا هو الذي دفع هذا الشيخ وابنه وحفيده وهو في ميعة الصبا إلى ترك مدينتهم ويبتعنهم ويقطعوا كل هذه المسافة ليصلوا إلى ليبيا من أجل معاونة إخوانهم الليبيين والجهاد معهم ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا.

كان الشيخ هو الميرلواء (الجنرال) المتقاعد محمد باشا... وابنه الميرالاي أحمد علاء الدين محمد... والحفيد هو الشاب محمد... فما قصة هؤلاء المجاهدين من الجد والأب والحفيد؟





الأسلحة على الهجوم المباغت الذي يشنونه على العدو ويحصلون على أسلحة الفارين والمحتولين منهم .

في إحدى الهجمات التي كبدوا فيها العدو خسائر كثيرة طُوفوا وحوصروا من قبل مدد جديد للجيش الإيطالي وأسروا . وها هم اليوم يمثلون أمام محكمة عسكرية إيطالية .

كانت أيديهم موثقة بالخيال بقوة بحيث أدمتها ، كانوا يلبسون اللباس الليبي المحلي ، وعلى رأس كل منهم طربوش عثماني . كانت التهمة ثابتة عليهم في نظر المحكمة ، فقد أسروا وهم يقتلون ورائحة وأثر البارود لا يزال على أيديهم .

ولكن الشيء الوحيد الذي كان يزعج رئيس المحكمة هو وجود صحفيين أحدهما بريطاني والآخر فرنسي حضرا متابعة المحكمة . سألهم رئيس المحكمة :

— من أنتم ؟

وقبل أن يقوم مترجم المحكمة بترجمة إلى المتهمين تقدم الكهل خطوة إلى الأمام وقال بلغة إيطالية سليمة :

— اسمي الميرالاي (العقيد) أحمد علاء الدين الضابط العثماني في خدمة مولاي السلطان . . . وهذا (مشيرا إلى والده) والذي الميرلواء (جنرال برتبة لواء) المتقاعد محمد باشا . . . وهذا (مشيرا إلى ابنه) ابني محمد الجندي المتطوع في الجيش العثماني .

استولى الذهول على أعضاء المحكمة وعلى الحاضرين في المحكمة وتبادل الصحفيان نظرة حائرة . جنرال متقاعد يتطوع في الجيش وتحت إمرة ابنه ويقاتل العدو كأي جندي آخر!! ثم أي عائلة هذه التي يجتمع فيها الجد مع الابن مع الخفيد في معركة يائسة بعيدة عن وطنهم!!

أحس رئيس المحكمة أن الوضع أصبح أكثر حساسية فقد ظهر أن المائتين أمامه عسكريون . . . ضابطان وجندي عثماني .

قرر رئيس المحكمة إلقاء الشبهة على هذا الأمر فقال مستجوبا العقيد :

— هل لديك أوراق رسمية تثبت ما تقول ؟

بعد معاناة وألم شديد استطاع العقيد أحمد إخراج ورقة من طيات ثوبه بيديه الموثقتين :

— هذا هو الأمر الرسمي لتعييني .

أخذ الحاجب الورقة الرسمية من يد العقيد وسلمها إلى رئيس المحكمة الذي بدأ يفحصها بدقة بينما تابع العقيد كلامه :

— إن قام مترجمكم بترجمة هذه الورقة الرسمية لكم فسترون أنها أمر رسمي بتعييني قائدا للواء الثاني من الفدائين العرب في ولاية طرابلس وهو صادر من السُّرْعُسُكُر العثماني (وزير الحرية العثماني) . كان من المفروض أن يؤدي هذا التطور الجديد في سير المحكمة إلى تغيير مجراها من محكمة تخاكم لصوصا هاجموا الجيش الإيطالي إلى محكمة عسكرية تنقيد بالقوانين الدولية حول محاكمة الأسرى العسكريين . ولكن مثل العقيد بالقوانين الدولية لمحاكمات العسكريين ومراعاتها كان أمرا بعيدا عن هذه المحكمة التي كانت قد أصدرت قرارها مسبقا وقبل بدء المحاكمة . وتطاهر رئيس المحكمة بأنه لا يصدق ادعاءات المتهمين ، لذا فلم يكن يعدهم أسرى حرب ، وكان دليله أنهم لم يكونوا يلبسون البزة العسكرية عند إلقاء القبض عليهم ، بل كانوا بزي محلي .

ذكر رئيس المحكمة هذا الأمر للمتهمين نافيا كونهم عسكريين عثمانيين . أجاب العقيد العثماني :

— نظرا لكوني قائدا لمقاتلين لا يلبسون البزة العسكرية فإني

فضلت أن أليس مثلهم ولا أليس البرة العسكرية لعقيد عثماني .

قرأ المدعي العسكري التهمة الموجهة إليهم وهي قيامهم في ٢٦ من شهر تشرين الأول من تلك السنة بمهاجمة الجيش الإيطالي وضربه من الخلف ضربة خائنة .

أنكر العقيد أحمد علاء الدين هذه التهمة:

— لم أضربكم من الخلف ، بل هجمنا عليكم ، هذا كل ما في الأمر ، علماً بأننا كنا قلة قليلة .

— لم تكونوا قلة ، بل هجمتم بأعداد كبيرة .

— بل كنا قلة ، كل ما كنا نملكه كان عبارة عن ٤٠٠ بندقية .

— أين هذه البنادق الآن؟

— لا ترجعوا أنفسكم من هذه الناحية . . . ستجدون أن

٣٥٠ بندقية ستصوب إليكم في القريب . أما البنادق الباقية وهي ٥٠ بندقية فقد استشهد ١٥ مجاهداً من حاملها ، وتم القبض على ٣٥ مجاهداً مع بندقيته وأعدموهم قبل محكمتكم هذه .

كان رئيس المحكمة يصير على أن هؤلاء المتهمين تابعون للحكومة الإيطالية ولكنهم أعلنوا العصيان عليها ، لذا فهم مجرد شقاة عصوا دولتهم . وما دام الأمر هكذا فالحكم واضح . أما العقيد العثماني فقد أصر على موقفه قائلاً:

— لم يكن نحن تابعين لكم في يوم من الأيام . . . ولم يكن المجاهدون العرب تحت قيادتي تابعين لكم . . . نحن جميعا مواطنون عثمانيون ، لذا لا نعرف بكم .

ظهر الانزعاج واضحا في وجه رئيس المحكمة العسكرية ، لذا حول مجرى الأسئلة إلى أسئلة قصيرة تتطلب أجوبة سريعة وقصيرة:

— هل شاركتكم في الهجوم يوم ٢٦ من شهر تشرين الأول لهذه السنة (١٩١١م)؟

— لقد قدت أنا ذلك الهجوم .

— وهل اشترك هذان (مشيرا إلى والده وابنه) أيضا في ذلك الهجوم؟

— أجل! إن ابني جندي ، ووالدي جنرال عثماني متقاعد تطوع في وحدتي جنديا!!

أطرق رئيس المحكمة بنظره وتظاهر بأنه يذق بعض الأوراق . ثم استأنف أسئلته:

— وهل قاتلتم جميعا دون بزة عسكرية؟

— أجل! وقد شرحت السبب .

— هل اشركت تحت قيادتك أي أفراد من سكان طرابلس المحليين؟ وهل دربتهم؟

— إن ولاية طرابلس ولاية عثمانية ، وسكانها مواطنون عثمانيون ، وقد ألحقتمهم بوحدي ودربتهم وقدتهم .

— يكفي هذا .

انتهت المحكمة وصدر القرار فوراً . . الإعدام رميا بالرصاص .

قام رئيس الكتاب في المحكمة وهو من مدينة نابولي الإيطالية واسمه أنطونيو أوانكلي بقراءة قرار المحكمة الذي كان قد كتب قبل انعقاد المحكمة قائلاً في الختام: «وصدر القرار الآنف وسجل في السجل ولا يوجد حق تمييز للمتهمين» .

يقول أحد الصحفيين اللذين كانا في المحكمة: لم تبهت الالتهامة التي كانت مرسومة على شفاه المتهمين لدى سماع القرار بل هتف العقيد العثماني بصوت واثق:

— يحيا السلطان!

أما والده الجنرال العثماني المتقاعد فقد هتف: الله أكبر!

أما الحفيد الشاب فقد بقي صامتا احتراما لوالده ولجده .

قاد الجنود المتهمين من قاعة المحكمة . . . وبعد فترة قصيرة سُمع أصوات طلقات أطلقتها ثلة من الجنود ، فقد نفذ الحكم فيهم بسرعة وبعد خروجهم من المحكمة مباشرة .

أما رئيس المحكمة فقد دمدم قائلاً:

— أحضروا المتهمين الآخرين!

قال هذا وقد حول وجهه الأحمر جانبا لكي لا يلتقي نظرات الصحفيين اللذين قاما تحية للمتهمين عندما مروا أمامهما إلى ساحة الإعدام وهما يحملان قبعتيهما في يديهما .

« كاتب وباحث تركي . قصة مستلهمة من مجلة «اسرتني» التركية عدد ٣٠٨ سنة ٢٠٠٤ .



## يا وردة الحرمين...



يا وردة حوّلت الصحراء القاحلة إلى جنان  
أشريقي على قلبي بألوانك الساحرة  
آن الأوان، لتكفكفي عيوني الدامعة  
يا وردة حولت الصحراء القاحلة إلى جنان